(السنة الثالثة عشرة)

العدد الثانى — ابريل – يونيه ١٩٤٧

صحيفة دار العلوم

(١٣٤٣ هـ ١٩٢٤ م)

تصدرها جماعة دار العلوم

كل ثلاثة أشهر

المدير — رئيس التحرير

محمد نجيب حتاته — محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

الاستاذ بدار العلوم

مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشاً
خارج القطر	٣٠ قرشاً
ثمن العدد	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج

إِنَّ بَاحِثًا مُدَقِّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْتَرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَيْنَ تَحْيَا، لَوَجَدَهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي دَارِ الْعُلُومِ"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

النقــــد فى الأدب العربى

تطور تاريخه فى سبيل وضع أصوله ومقاييسه

للأستاذ السباعى بيومى

وكيل كلية دار العلوم

تقول العرب نقد الصيرف الدراهم وانتقدها إذا أخرج منها الزائف وأبقى الصادق ، وتقول ناقد فلان فلانا فى الأمر إذا ناقشه فيه ، ومن هذا المعنى الأصيل جاء معنى النقد فى الأدب .

فما النقد إلا أن يعمل الأديب فى الكلام مايعمل الصيرف فى الدنانير، هذا ليعرف صادقها من زائفها كما تقدم ، وذاك ليعرف جيده من رديئه ،والنقد فى ذاته موجود منذ وجد الناس ، فان الانسان خلق نزاعا إلى الكمال لانهاية له يقف عندها . ومن ثم كان منصرفا بطبعه إلى إدراك مافى الأشياء من وجوه كمال يستريح إليها ووجوه نقص يسعى فى كمالها ، ثم هو أيضا واسع الدائرة كثير الأشخاص ، لأن إدراك الكمال والنقص ليس مقصوراً على ذوى القدرة على الكمال ، وإنما هو شىء يدركه بالفطرة عامة الناس ، على أن هذا لايطعن فى أن أقدر الناس عليه فى شىء من الأشياء ، إنما هم ذوو الدراية القيمة فيه والمقدرة البالغة عليه،ولذا وجب على كل ناقدلشىء أن يفقهه ويختص فيه حتى يؤتى النقد ثمرته المرجوة ، التى لاتكون شهية ناضجة بدونه ، وقل أن يوجد تقدم فى ناحية من نواحى الحياه إلا وللنقد الأثر البارز فيه .

ولما كان أدب اللغة لأمة ما أظهر سمات الأمة وأصدق معبر عن حياتها وكانت كل أمة ترجو لهذه الظاهرة النمو وتنشد لها الكمال ، فقد عنى أدباؤها

بالنقد الأدبي الذى وجد فطريا بوجود اللغة ، عناية سايروا فيها حياتها حتى استكمل أصوله واستوفى مقاييسه ، وهذا الذى كان من أدباء العرب فى نقد لغتها على توالى عصورها وإليك البيان .

١ - فى العصر الجاهلى

قامت ملكة النقد عند الجاهليين على الذوق الفطرى لا الفكر التحليلى ، ومع هذا تناولت اللفظ والمعنى كما كان يقال قديما أو الصياغة والفكرة كما قيل حديثا .

سمع طرفة بن العبد المتلمس وهو يقول :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره   بناج عليه الصيعرية مكدم

فقال « قد استنوق الجمل » ، وهذا نقد توجه منه إلى المتلمس فى ناحية الألفاظ إذ الصيعرية سمة حمراء تعلق فى عنق الناقة لا الجمل ، وهذا من استعمال الألفاظ فى غير مواضعها . ودخل النابغة الذبيانى يثرب فدس له الحجازيون على إعجابهم بشعره قينة تغنيه بيتين من شعره ليفطن إلى ما بينهما من المخالفة فى حركة الروى وهما

أمن آل مية رائح أو مغتدى   عجلان ذا زاد وغير مزود

زعم البوارح أن رحلتنا غدا   وبذاك خبرنا الغراب الأسود

ففطن وأصلحه بقوله « وبذاك تنعاب الغراب الأسود » وقال دخلت يثرب وفى شعرى عاهة وخرجت وأنا أشعر الناس . وهذا من الخطأ الذى يتنافى وموسيقية الألفاظ فى الشعر ، وهو الذى سماه العروضيون بعد بالأقواء وهو من عيوب القافية . وأنشد الأعشى قيس بن معد يكرب أحد أشراف اليمن مدحته التى منها :

ونبئت قيسا ولم أبله   على نأيه ساد أهل اليمن

وهذا من خطأ المعنى لأن عدم الاختبار يضعف الحكم ، ولأن الزعم فى عرف العرب مطية الكذب .

وقديما عابت العرب على مهلهل بن ربيعة أنه كان يبالغ فى القول ويدعى فيه ماليس يكون، كقوله

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور

فقد كان بين حجر التى ذكرها وبين عنيزة التى كانت محل الوقعة وفيها قيلت القصيدة مسيرة أيام ، وهذا من المبالغات الغالية المغرقة التى من شأنها إفساد المعـــانى .

بهذا النقد المبنى على السليقة الفطرية والذوق العام أمكن العرب فى جاهليتها أن تميز بين كلام وكلام من حيث الصياغة والفكرة فتستحسن هذا وتستهجن ذاك، وبه أمكنها أن تتخير قصائد بأعيانها فتعطيها من المكانة والألقاب مالم تعط غيرها .

روى أبو عمرو الشيبانى الكوفى أن عمرو بن الحارث الغسانى حين أنشده علقمة بن عبدة قصيدته :

طحابك قلب فى الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

وأنشده النابغة قصيدته

كلينى لهم ياأميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب

وأنشده حسان قصيدته :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل بين الجوابى فالبضيع فحومل

فضل حسانا عليهما ودعا قصيدته البتارة يعنى أنها بترت غيرها من المدائح ومن جيد ماقال حسان فيها .

لله در عصـــابة نادمتهم يوما بجلق فى الزمان الأول
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الافضل
يمشون فى الحلل المضاعف نسجها مشى الجمال إلى الجمال البزل
الضاربون الكبش يبرق بيضه ضربا يطيح له بنان المفصل
والخالطون فقـيرهم بغنيهم والمنعمون على الضعيف المرمل

وذكر حماد الراوية أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش فما قبلوه

منها كان مقبولا وما ردوه كان مردودا ، وذكر أن علقمة بن عبدة لما أنشدهم قصيدته

هل ماعلمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

قالوا هذه سمط الدهر ، فلما عاد إليهم فأنشدهم قصيدته

طحابك قلب فى الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

قالوا هاتان سمطا الدهر .

وفى أخريات العصر الجاهلى كان الأدب من بضائع الأسواق التجارية إذا كان يلتقى فيها — ولاسيما عكاظ — الشعراء فى موسم كل عام من كل نحو من أنحاء الجزيرة يتناشدون ويتفاخرون ، وكانت لغة قريش حينذاك قد صارت لغة الجزيرة كلها فكان يقع الشعر أكثر ما يقع بها ليكون أذيع وأنفذ ، وأقرب الى كل القبائل وأفهم . وأخيرا كان لهم فى هذه الاسواق حكام من ذوى المكانة فى الشعر يتحاكم إليهم الشعراء فيما ينشدون من بينهم نابغة بنى ذبيان . وفد عليه وهو يقضى بين الشعراء فى عكاظ ذات موسم ، حسان بن ثابت والأعشى والخنساء فأنشده حسان :

لنا حاضر فعم وباد كأنه شماريخ رضوى عزة وتكرما

ومنها :

ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

وأنشده الأعشى قصيدته :

مابكاء الكبير بالاطلال وسؤالى وماترد سؤالى

ومنها :

إن يعاتب يكن غراما وإن يعـط جزيلا فانه لايبالى

ثم أنشدته الخنساء قصيدتها

قذى بعينيك أم بالعين عوار أم ذرفت أن خلت من أهل الدار

ومنها :

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

فقال لها لولا أن أبا بصير سبقك « يعنى الأعشى » لقلت إنك أشعر من بالسوق ، فغضب لذلك حسان فقال له أضعفت فخرك إذ فخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك .ولم يتجاوز العرب فى جاهليتهم هذا الحد الفطرى من النقد ، ذلك الحد الذى هدتهم إليه فى المعانى فطرتهم السليمة ، وما اكتسبوه من معارف متحضريهم فى الجنوب والشمال والشرق ، بل فى الغرب أيضا حيث تعيش قريش ذات المكانة الدينية بسدانة البيت ، والمكانة الدنيوية بالرياسة ورحلتى الشتاء والصيف ، وهداهم إليه فى الألفاظ ذوقهم الصادق ، الذى تربى فيهم بما اطمأن إليه الشعر حين جادت صياغته وعم تهذيبه وانتهى إلى ما انتهى إليه من تقصيد القصيد على وزن وقافية ، على أن هذا لم يصل بالنقد عندهم إلى الناحية العلمية التحليلية ، ومن ثم لا يشك الأديب فى رد مانسب إليهم منه مبنيا على هذه الناحية التى لاتتم بغير تعليم وتثقيف ،كالنقد المعزو إلى النابغة فى بيت حسان من القصيدة السابق الايماء اليها فى الحادث المذكور وهو

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فان بعض الرواة زاد على ما ذكرنا آنفا من وجه تفضيل ، أن النابغة قال له ، قلت الجفنات ولو قلت الجفان لكان أكثر ، وقلت أسيافنا ولو قلت سيوفنا لكان أكثر ، يعنى بذلك أن جمع المؤنث السالم من جموع القلة ، وأن وزن أفعال التكسيرى من جموع القلة أيضا بخلاف وزن فعول فهو جمع كثرة . وهذا غير معقول أن يعنيه جاهلى . لأن النحو لم يكن قد وضع بعد . إنما هذا تزيد مختلق فى القرن الثالث على الأقل اللهم إلا إذا قيل إنهم كانوا يحسون كثرة هنا وقلة هناك . وكالنقد المنسوب إلى أم جندب حين تحاكم إليها زوجها امرؤ القيس وعلقمة بن عبدة الذى خلفه عليها فلقب بالفحل . من أنها اشترطت عليهما أن يقولا قصيدتين متحدتين فى الغرض والوزن والقافية . فقال امرؤ القيس قصيدته:

خليلى مرا بى على أم جندب لنقضى حاجات الفؤاد المعذب

وقال علقمة قصيدته :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب ولم يك حقا كل هذا التجنب

والذى تنفيه هى تلك الشروط الاصطلاحية الفنية، أما أن تفضل قول علقمة فى إدراك فرسه .

فادركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

على قول امرىء القيس فى ذلك :

فللسوط ألهوب وللساق درة وللزجر منه وقع أهوج منعب

فلسنا بالطاعنين فيه . لأنه مما يدرك بالفطرة والذوق .

ومن ذلك ما روى من أن العرب فى جاهليتها حين أدركت سمو السبع الطوال كتبتها فى قباطى مصر وعلقتها بالكعبة تشريفا لها . وأنها لذلك سميت بالمعلقات . لأن العناية لم تصل بهم فى النقد إلى هذا الحد. ثم إن لفظة المعلقات ذكرت أول ما ذكرت فى كتاب العقد لابن عبد ربه الأندلسى . ولو كان التعليق حقيقة واقعة لكان أولى بذكر ذلك قبله أدباء المشارقة . كابن سلام فى الطبقات . وابن قتيبة فى الشعر والشعراء . والجاحظ فى البيان والتبين. وغيرهم. على أن أول من جمع هذه القصائد . وهو حماد الراوية . سماها السبع الطوال لا المعلقات . ولم يقل إنها علقت بالكعبة . فهذه لا شك تسمية مستحدثة أوحى بها ضمنا ما كانت تتجوز فيه العرب من تسمية القصيدة الجيدة سمطا . كما فعلت قريش فى قصيدتى علقمة السالفتين . والسمط العقد النفيس ومن شأن هذا أن يعلق فى الجيد . ثم هدا اليها ما ذكره أبو زيد فى جمهرته حيث قال « هؤلاء أصحاب السبع الطوال التى تسميها العرب السموط » ثم جاء من قال المعلقات بدل السموط من باب الترادف . أو التعبير عن اللفظ بما يدل عليه لازم معناه . فشهرت بهذا الاسم الأخير .

٢ - فى صدر الإسلام

جاء الاسلام والنقد على ماذكرنا فى نفوس العرب . وكانوا قد بلغوا بكلامهم الذروة فى البيان . كما بلغوا فى تمييز الكلام بعضه من بعض . المبلغ الذى لايخطئون معه فى تقدير ومن ثم لم يك عجبا أن تحجم قريش عن معارضة القرآن وأن يسجد له ساجدون منهم لبلاغته لا للايمان به . نعم إن الحياة الجديدة جاءت صارفة للعرب عن قول الشعر والحفل به . حيث جاء القرآن بهذه البلاغة المعجزة نثرا لا شعرا ، وحيث انصرف رسول الله ﷺ عن قول الشعر وعن إقامته لوزنه إذا رواه . ولكن هذه الحياة نفسها لم تمنع النبي عليه الصلاة والسلام أن يعرف للشعر قيمته وتأثيره . فحين نهضت شعراء قريش تهجوه وتحط من دعوته أمثال أبى سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب . وعبد الله بن الزبعرى . وكعب بن الأشرف وغيرهم . قال للانصار ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم فقال حسان بن ثابت أنا لها يارسول الله وأخذ بطرف لسانه فضرب به أرنبة أنفه وقال والله ما يسرنى به مقول بين بصرى وصنعاء . فقال له ﷺ وكيف تهجوهم وأنا منهم فقال إنى أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين قال اذهب إلى أبى بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ثم اهجهم وجبريل معك . فأخذ حسان يهجوهم مدافعا عن النبى وعن دينه وانضم إليه فى ذلك نفر أخصهم عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك . ولكن حسانا كان أشدهم وأوجعهم وبذلك انفتح فى نقد الشعر أمام رجال صدر الاسلام ميدانان . أحدهما بين شعراء المسلمين وشعراء المشركين . وفيه حكم القوم حتى الخصوم للاولين على الآخرين . ذلك لأن الشعر كان فى الدين وما يتصل بالدين ، وأنى للمشركين فيه ما كان للمسلمين من النبع الصافى ذى القرار المكين . وثانيهما ما كان بين حسان وسائر شعراء المسلمين . وقد دان فيه القوم بالفوق لحسان . لما كان له من قوة الشاعرية ولما كان ينفحه به الروح الأمين تحقيقا لرغبة الصادق الأمين الذى شهد له بهذا الفوق بقوله له على سبيل التحريض

« شن الغارة على بنى عبد مناف فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع الحسام فى غلس الظلام » على أن شعر حسان نفسه قد فتح أمام النقاد ميدانا ثالثا هو الموازنة بين شعريه الجاهلى والاسلامى والحكم بأن الأول فضل الثانى فى غير أغراض الدين . أما هذه الأغراض نفسها فكانت جديدة لا محل للموازنة فيها إذ لم يك لها فى جاهلية حسان وجود . بل إن القوم توسعوا فى هذه الموازنة فتعدوا حسان إلى غيره . ثم عمموها حتى قيل شعراء الخضرمة ثم قيل شعراء الجاهلية والاسلام .

فعل رسول الله ﷺ ذلك ، ثم كان يعجبه من الشعر ما وافق الحق . سمع قول طرفة على لسان بعض صحبه .

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فقال إنه لمن كلام النبوة . ولما أنشده العلاء بن الحضرمى .

وحى ذوى الأضغان تسب عقولهم تحيتك الحسنى وقد يرقع النعل
فان دجسوا بالكره فاعف تكرما وإن خنسوا عنك الحديث فلا تسل
فان الذى يؤذيك منه سماعه وإن الذى قال وراءك لم يقل

قال إن من الشعر لحكمة فاذا ألبس عليكم شىء من القرآن فالتمسوه فى الشعر فانه عربى . ولقد كان ﷺ يستنشد الشعراء الشعر فيستحسنه ويثيب عليه ويتأثر به . فكثيراً ما كان يستنشد الخنساء رثاء أخيها صخر ويقول لها هيه ياخناس وهذا كعب بن زهير أنشده لاميته فأثابه عليها بردته التى اشتراها منه معاوية بعد بثلاثين ألف درهم وتوارثها من بعده الخلفاء يلبسونها فى الجمع والأعياد ، وهذه قتيلة أخت النضر بن الحارث أنشدته حين قتل أخاها بعد وقعة بدر أبياتا منها :

أمحمد ولدتك خير نجيبة فى قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق
فالنضر أقرب من قتلت قرابة وأحقهم إن كان عتق يعتق
لو كنت قابل فدية لفديته بأعز ما يغلى به من ينفق

فقال لو سمعت هذا قبل قتله لمننت عليه . وما كان أدقه فى تخير قوله « لمننت عليه » على قوله « ما قتلته » مثلا لما يشعر به لأول من أن القتل كان بحق وأن تركه لم يكن ليكون إلا عن عفو .

ومن هنا لم يك غريبا أن تحدث المحاكمات فى الشعر أمام رسول الله. قدم عليه ﷺ وفد تميم فى سبعين أو ثمانين رجلا . فقال الزبرقان أبياته التى منها

نحن الملوك فلا حى يقاربنا   منا الملوك وفينا يؤخذ الربع
تلك المكارم حزناها مقارعة   إذا الكرام على أمثالها اقترعوا

فأمر ﷺ حسانا أن يجيبه فأجابه بقصيدة منها :

ان الذوائب من فهر وأخوتهم   قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته   تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا

فقام عطاء بن حاجب فقال :

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا   اذا اجتمعوا وقت احتضار المواسم
بأنا فروع الناس فى كل موطن   وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم

فأجابه حسان :

منعنا رسول الله من غضب له   على رغم أنف من معد وراغم
هل المجد إلا السؤدد العد والندى   وجاه الملوك واحتمال العظائم

فقام الأقرع بن حابس فقال والله إن هذا الرجل لمؤتى له . والله لشاعره أشعر من شاعرنا . وفى هذا الوقت من البعثة كانت قد تأصلت فى نفوس العرب بعض الأصول لمحاكمة الشعر والتفاضل بين الشعراء . روى أن رهطا من شعراء تميم ، هم عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر والمخبل السعدى وعبدة ابن الطبيب . اجتمعوا يتفاضلون وتحاكموا إلى أول طالع عليهم ، فكان ربيعة ابن حذار الأسدى فاستنجدوه فقال أما عمرو فشعره برود يمنية تطوى وتنشر ، وأما أنت يازبرقان فشعرك كلحم لم ينضج فيؤكل ولا ترك نيئا فينتفع به ، وأما أنت يامخبل فشعرك شهب من الله يلقيها على من يشاء من عباده . أما

أنت ياعبدة فشعرك كمزادة أحكم خرزها فلم يقطر منها شيء.

ولقد سار خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده إزاء الشعر ونقده كما سار، فكانوا يميزون بين شعر وشعر فيحضون على ماهو حسن مفيد ويعاقبون على ماهو شائن ضار، وما منهم إلا من تمثل بالشعر أو قاله. وحض على روايته وحفظه، ولهذا كانت وفود العرب تختلف إلى المدينة فى عهدهم يؤمون أنديتها ومساجدها ليخوضوا فى أحاديث الشعر والشعراء. وكثيرا ما كان يشاركهم فى تجاذب الحديث الخلفاء أنفسهم وخاصة عمر بن الخطاب. ولعله كان أحبهم للشعر وأبصرهم بمناحى النقد فيه. تحدث مرة مع وفد غطفان فقال، أى شعرائكم الذى يقول:

أتيتك عاريا خلقا ثيابى على خوف تظن به الظنون

قالوا النابغة، قال فأى شعرائكم الذى يقول

حلفت فلم أترك لنفسى ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا النابغة، قال فأى شعرائكم الذى يقول.

فانك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

قالوا النابغة. فقال هذا أشعر شعرائكم. وقال ابن عباس، قال لى عمر ليلة مسيره إلى الجابية فى أول غزوة غزاها، هل تروى لشاعر الشعراء، قلت ومن هو، قال الذى يقول:

ولو أن حمدا يخلد الناس أخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد

قلت ذلك لزهير، قال فذاك شاعر الشعراء، قلت وبم كان شاعر الشعراء؟ قال لأنه كان لا يعاظل فى الكلام، وكان يتجنب وحشى الشعر، ولم يمدح أحدا إلا بما فيه، فهو حين فضل النابغة، جعله أشعر شعراء قومه غطفان. وليس هذا بالمنازع فيه حتى يسأل عنه الدليل. ولكن حين جعل زهيرا أشعر الشعراء سأله ابن عباس بيان الوجه فى هذا التفضيل العام فساق اليه ما تقدم راجعا بعضه إلى الصياغة وهو ترك الحوشية أى الغرابة فى المفردات، وعدم المعاظلة أى التعقيد فى التراكيب. وبعضه الآخر إلى الفكرة وهو التسامى

عن الغلو فى الأوصاف . فأشار بذلك إلى بعض المقاييس فى ناحيتى المعانى والألفاظ .

على أنه رضى الله عنه كان كسائر الخلفاء فى تغليب ناحية الدين ؛ ولهذا كان شديد الاعجاب بنزعة سحيم الدينية فى مثل الذى يقول :

عميرة ودع إن تجهزت غاديا   كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا

وكان واقفا للشعراء يحصى عليهم الهجو المقذع ويوقع بهم من أجله أشد العقاب كما فعل مع الحطيئة فى هجائه الزبرقان بن بدر بقصيدته التى منها :

دع المكارم لاترحل لبغيتها   واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

حيث حبسه ولم يطلقه إلا بعد أن أخذ عليه عهدا ألا يهجو المسلمين، ولم يكن غريبا إذن وهذا موقفه من الشعر أن يقول «أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها فى حاجته يستعطف بها قلب الكريم ويستميل بها قلب اللئيم » وأن يكون هو كذلك . فلا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه شعرا، وأن يقول لابنه «يابنى انسب نفسك تصل رحمك . واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك . فان من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه، ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقا ولم يحسن أدبا » بل يقول للناس كافة « تعلموا الشعر فان فيه محاسن تبتغى ومساوى تتقى » ثم يكتب إلى أبى موسى الأشعرى يقول «مر من قبلك بتعلم الشعر . فانه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب» .

مما تقدم يفهم أن النقد كان ذا حياة فى صدر الاسلام ، منذ أن تراشق بالشعر شعراء الاسلام وشعراء المشركين على عهد رسول الله ، وأن تلك الحياة بقيت له زمن الخليفتين أبى بكر وعمر وبخاصة أيام الفاروق ، ولكن بعد فترة من خلافة عثمان ، أخذ يدب فى جسم هذه الحياة الفتور ، لما شغل الناس من الفتن التى بدأت بذبح عثمان وانتهت بقتل على . فكان فى هذه وتلك، صرف النفوس عن رواية الأدب . بله مدارسة نقده والحوار فيه ، وكان أن

ركدت ريحه وعفا رسمه . ثم لم يزل على تلك الحال من الركود والعفاء حتى استقر الأمر لمعاوية بتنازل الحسن وعاود النفوس الهدوء والاطمئنان ، فحاولت العود إلى الأدب تستنشق روحه وتتلمس أنسه ، بمذاكرة روايته ومدارسة نقده ، فاذا الأدب يقوم من سبات ، يتبارى قديمه وحديثه وتتسابق خطباؤه وشعراؤه . وإذا النقد ينشط من عقال فتتسع ميادينه وتكثر رجاله وتنتهى به الحال إلى خلق الرواية وإيجاد " رواة ، وإلى ظهور الشخصيات الأدبية فى رجالات الدولة خلفاء وغير خلفاء كما سترى بعد إن شاء الله .

السباعى بيومى

بنو تميم فى سماء العروبة

— ١ —

(١) التعريف ببنى تميم . (٢) أثر البيئة فى للهجات العربية . (٣) مما ابتكروه فى اللغة . (٤) من مظاهر اختلاف لهجتهم . (٥) أفكوهتان لغويتان (٦) (ما وليس) بين بنى تميم والحجازيين . (٧) تمسك كل قبيلة بلهجتها

عبد العزيز مزروع (الأزهرى)
المدرس بالمدارس الثانوية

---

(١) التعريف ببنى تميم : كان قومى : بنو تميم — بين القبائل العربية — واسطة العقد . وقد [illegible] والعزة . وطالما احاولى للتاريخ أن يسيد بذكرهم . ويبوه بمثلهم . مما تركوه من خوالد روائع فى جاهليتهم وإسلامهم . وسلمهم وحربهم . ولما سجلوه من وفائهم وسخائهم . وشعرهم وخطبهم . وحكمهم وأمثالهم .

وحسبك أن منهم الملوك . والوزراء . والمستشارين فى ظلال الرفادة ، [illegible] والحكام [illegible] (قيس بن عاصم) سيد أهل الوبر . و (والأحنف بن قيس) أحلم البدو والحضر و(خالد بن صفوان) أبلغ من خطب وكتب . والراوية النسابة (أبا مزروع الكلبى) . وملكى الشعر فى العصر الاسلامى (جرير والفرزدق) . وأميرا الرجاز : (رؤبة) و (العجاج) ومنهم (الزبرقان بن بدر) . من كاد تقديسه فى الجاهلية يصل إلى درجة العبادة . ومن كان فى فجر الاسلام شاعر وفد بنى تميم فى حضرة سيد الرسل . وقد حدث أنه لما مثل بين يديه (ص) ليعلن إسلام قومه عز عليه إلا أن يبدأ إسلامه بالمفاخرة . فرفع عقيرته بقصيدته التى مطلعها :

نحن الملوك . فلاحى يعادلنا   منا الملوك . وفينا يؤخذ الربع

بل حسب قومى أنهم كانوا فى الجاهلية أمنع حصون العربية .والمشرفين على الطواف والافاضة من مناسك الحج ، وأنهم استأثروا بالامامة، والأحكام فى قضايا العرب بعد (عامر بن الطرب العدوانى) وأنهم ظلوا حقبة طويلة يلى الرجل منهم الموسم . ويلى غيره القضاء ، ثم اتسع نفوذهم وتألق نجمهم فصار الزعيم منهم يجمع فى قبضته بين ولاية الموسم والقضاء جميعا من (أبي المزارعة[1] : سعد بن زيد مناة) إلى (سفيان بن مجاشع) وهى مدة تربى على مائتى سنة !! ثم انفرد عقد تلك السلسلة الذهبية بعد أن نهضت قريش نهضتها بزعامة (قصى) الجد الرابع لسيد الخلق فاقتصر (بنو تميم) على القضاء وحده دون ولاية الموسم[2] مدة ٢٠٠ سنة أخرى هى التى علا فيها شأن (قريش) فتناسى العرب فضل (بنى تميم) !!

أفليس من الوفاء للعرب والبر بقومى — بعد الاشادة بتلك الخوالد الروائع — أن نبين لأحفادهم لمعا من جهادهم للأخذ بناصر تلك اللغة الشريفة التى آن الأوان أن تنفض عنها غبار القرون ، وتساير النهضة العربية الحديثة واللغات الحية لتسترد مجدا غبر . وعزا أدبر !! تلك هى الغاية من الكلمات التى سأنثرها هنا ، فمعذرة سادتى لما ترون من هنات !

(٢) أثر البيئة فى اللهجات العربية :

اختلاف الناس ألسنة وألوانا وأشكالا بين منطقة وأخرى من منطقات الكرة الأرضية ، من الأمور التى لا يختلف فى بداهتها اثنان : فأهل السودان غير أهل فرنسا . وهما غير أهل الصين واليابان . وهم غير أهل القطبين ، ولا يهمنا بعدئذ أرجع سببه إلى البيئة ، أم الوراثة ، أم غيرهما .

---

(١) المزارعة أحمد مزروع الأكبر وهو كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم . ومن أحفاده بيوتات كثيرة الآن فى مصر وفى الحجاز ونجد . موطنهم الاصلى . ومضارب بنى تميم الآن فى العراق

(٢) ص ٤٣٨ من كتاب النقائض بين جرير والفرزدق

وأعجب من هذا أن أبناء الاقليم الواحد يختلفون فى هذه الأشياء : فالفرق بين سكان مصر العليا - جنوبا - ، وأسفل الأرض - الوجه البحرى - شمالا ، بل بين مديرية وأخرى ، بل بين أبناء المديرية الواحدة يؤيد هذه الحقيقة ، أتعجب أن نجد لهذه القاعدة سلطانها فى جزيرة العرب ، وأن نلق لكل قبيلة لهجة ، وأن نسمع عند البحث فى الكتب اللغوية عن (عجعجة قضاعة) و (شنشنة اليمن) و (طمطانية حمير) و (وكم كلب ووهمها) و (لخلخانية الشحر وعمان) و [قطعة طى] وهكذا بقية القبائل اليمانية .

وهل من غرابة أن نجد حكمها نافذا أيضا على القبائل العدنانية ، فنسمع عن [فخفحة هذيل] و [كشكشة أسد] أو ربيعة أو تميم و [استنطاء سعد بن بكر] و [تليتلة بهراء] ...

ليس من المنطق أن يشذ بنو تميم عن بنى جلدتهم ، أو يلقوا اشارة استقلالهم ورمز ابتكارهم ، فيندمجوا فى غيرهم كدأب القبائل الهزيلة !

إن الباحث فى أضابير اللغة العربية ليصفق إعجابا بنشاطهم فى هذا الميدان وإصرارهم على أن يكون لهم نصيب الأسد فى وضع لغتهم ، كما كانت لهم خوالد الآثار فى الحروب العربية .

ولا مرية فى أن الكثرة الكاثرة من مفردات اللغة كانت شائعة بين العرب جميعاً ، وأستطيع الحكم بأن نسبتها ٩٠ ٪ أما الباقى فهو المجال اللغوى الذى تسبح فيه اللهجات الخاصة !

والغالبية الغالبة مما تكلم به العرب فى جاهليتهم ، وما يكتب به مثقفوهم الآن من وضع [بنى تميم] و [بنى قيس] و بنى أسد] فأولئك هم الذين اعتمد عليهم علماء اللغة فى تسجيل الغريب ، وفى الأعراب ، وفى التصريف ... لاقريش التى يظن بعض الناس خطأ أن لهجتها من وضعها ، إذ كل ما كانت تفعله أن تختار [1] من ألفاظ القبائل ماسهل لفظه ، وخف وقعه ، فتدخله فى

(١) ص ١٢٧ ج ١ من المزهر وما بعدها

هيكل لهجتها ، وتستعمله فى محادثة القبائل ، والحكم فى الأسواق ، وفى رحلاتها التجارية .

[٣] مما ابتكروه فى اللغة

ولأرجع الآن إلى مجال الاستقلال اللغوى ، وهو الذى خالف فيه العرب بنى تميم ، وبقى قومى متمسكين بالنطق به ، ثم اندمج فى صلب اللغة عند وضعها ، دون أن ينص على أنه من مبتكراتهم إلا أثارة من علم ، أو إشارة فى عبارة ، وكل ماخالف فيه بنو تميم غيرهم إنما هو من ارتجال فصحائهم لأن العربى إذا قويت فصاحته ، وسمت طبيعته تصرف وارتجل مالم يسبق إليه .

وآية ذلك أن [رؤبة] و [العجاج] — وهما من صميم المزارعة فى بنى تميم — كانا يرتجلان ألفاظا لم يسمعاها ، ولا سبقا إليها ، ويؤيد هذا مارواه أبو حاتم :

(١) سألت [أم الهيثم] — وهى من عشيرتى الأقربين — عن الحب: [أسفيوش] ما اسمه ؟

فقالت : أرنى منه حبات ، فلما رأتها فكرت لحظة ، ثم قالت : هذه البحدق ، فلم تلبث هذه الكلمة أن ذاعت ، وإذا كشفت فى القاموس المحيط تجده يقول :

البحدق كعصفر [بزر قطونا]

(٢) وفى الجمهرة : يقال « ابن أجلى » فى ابن جلا ، قال [العجاج] :

لاقوا به الحجاج والأصحارى به « ابن أجلى » وافق الأسطارا

قال [الأصمعى — وهو أعلم القوم بالشعر ، وأتقنهم للغة ، وأحضرهم حفظا :

« لم أسمع يابن أجلى إلا فى هذا البيت .

(٣) وفى الأمالى لأبى على القالى : السكثر : السقام قال [علقمة الفحل] — وهو تميمى —

كتر كحافة كتر القين مكموم

وسمعه [الأصمعى] فقال أيضا : لم أسمع بالكتر إلا فى هذا البيت

هذا بعض ماابتكروه فى اللغة ، أما ماشاركوا فيه غيرهم من الكلمات العربية ، ولكنهم اختلفوا معهم فى النطق به فكثير بعضه يرجع إلى الاختلاف فى الحركات ، أو فى الحركة والسكون أو فى إبدال الحروف . . . . وها كم نماذج منها ، تصيدتها من جملة مراجع لغوية قديمة وحديثة للشرقيين والمستشرقين ، وهى كثيرة يضيق الحصر عنها ، لهذا سأكتفى بما يأتى :

(٤) من مظاهر اختلاف لهجتهم :

[المظهر الأول] الابدال .

ومن سنن العرب إبدال الحروف وإقامة بعضها مقام بعض ومن أمثلته أن [بلعنبر] من بنى تميم كانوا يقيمون الصاد مقام السين إذا وقع بعدها حرف من أربعة فى كلمة واحدة ، وهذه الأحرف هى [الطاء والقاف والعين والخاء] سواء اتصلت السين بأحد هذه الأحرف أم انفصلت بحرف أو حرفين أو ثلاثة :

فعندهم [بصطة] فى بسطة ، و [صراط] فى سراط ، و [صيقل] فى سيقل ، وغير [بلعنبر] لايتقيدون بهذه الأحرف الأربعة .

[٥] أفكوهتان :

[١] ومما يستظرف لهذه المناسبة أن [النضر بن شميل [1]] التميمى مرض يوما ، فعاده لفيف من الأدباء ، فقال له واحد منهم يكنى [أبا صالح] : « مسح الله مابك » فقال النضر : لاتقل مسح بالسين ولكن قلها بالصاد ! فقال الرجل : « ان السين قد تبدل من الصاد كما يقال : الصراط والسراط ، وصقر وسقر ، فقال النضر : فاذا [أنت أبو سالح] ؟ ! ! فخجل الرجل لما تفيده كلمة [السالح] من معنى آخر ! !

(١) من (ترجمة النضر فى (وفيات الاعيان)

وكما يروى أيضا أن بعض الأدباء جوز فى حضرة [الوزير أبى الحسن ابن الفرات] أن تقام [السين] موضع [الصاد] - عكس لهجة بلعنبر - فى كل موضع ، فقال له : « كيف تقرأ قوله تعالى : « جنان عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم » ! فتوارى الرجل خجلا ، فراراً من المعنى الآخر !!

[أثر بنى تميم فى البربرة] ومن مواضع الابدال أيضا عند قومى أنهم يجعلون الحاء هاء فى بعض المواضع فمن أفخاذهم من يقول [مدهته] فى مدحته ، فاذا سمعت البرابرة يقولون [مهمد] فى محمد فتأكد أنه أثر تميمى كعشرات الآثار التى سأضعها بين يديك فى لهجة المصريين شمالا وجنوبا .

[المظهر الثانى] من مظاهر اختلاف لهجتهم [القلب] أى قلب حرف علة بآخر كقولهم : « قليت السمك» فى قلوته الحجازية ، وعليه جرى المصريون فهذا أثرثان لبنى تميم ولكنه بين المصريين .

[المظهر الثالث] أنهم يراعون التصحيح فى اسم المفعول من [الثلاثى المعتل العين] فيقولون [مبيوع] فى مبيع و [مديون] فى مدين ، فالمصريون تميميون فى هذا أيضا لاحجازيون.

[المظهر الرابع] تسهيل الهمزة بجعلها حرفا من جنس حركة ماقبلها ،فهم يقولون [شوم ولوم] و [راس وفاس وفار] فى شؤم ولؤم ورأس وفأس وفأر فهذا أثر ثالث لهم فى مصر .

[المظهر الخامس] المغايرة فى الشكل فقط كقولهم [برئت] من المرض بكسر الراء . والحجازيون يفتحونها ويقولون الشفع والوتر بكسر الواو والحجازيون يفتحونها ،

ويقولون :إنى [برىء] من سفساف الأمور وجمهرة العرب معهم ، والحجازيون يقولون : براء وقد قرىء بهما ولعل الكسر فى هذه الكلمات لمراعاة المعانى التى دلت عليها هذه الألفاظ، فالكسر فى برئت من المرض أسهل فى النطق لمن كتبت له السلامة فنجا من المرض ، والوتر كسر أوله لأنه عند الاطلاق

أضعف عددا من من الشفع والكسر يناسب الضعيف لا القوى، وبرىء من سفساف الأمور كنسبة برئت من المرض .

[المظهر السادس]الاختلاف بالزيادة أو النقص،فهم يقولون فى الزيادة .

[أحزنى] الأمر، و [اسأل] القريةو [الكراهية] من مظاهر الضعف النفسى ، وغيرهم يقولون حزنى ، وسل ، والكراهة ، والقياس يؤيد بنى تميم فى الأول ، لأن الألف فيه للتعدية والثلاثى لازم ، أما غيرهم ، فيجعل الثلاثى للازم والمتعدى معا . وهو خلاف ماجرى عليه التنسيق اللغوى و [اسأل] أبلغ. وإن كان سل عندغيرهم أرشق، وزيادة الياء فى[الكراهية] يستدعيها المعنى الذى وضع له هذا اللفظ .

وأما فى النقص فيقولون : [عل] بدل لعل و [مذ] بدل منذ ، والنقص فى عل يدل على أنهم كانوا أباة ، وليس من شيمتهم أن يلحفوا فى الرجاء ، نخطاف لفظه أنسب من إطالته .

[المظهر السابع] الاختلاف فى التذكير والتأنيث ، فقومى يقولون هذا تمر وملح وذهب والحجازيون : هذه تمر وملح وذهب ، ومن السهل تعليل التذكير لارادة النوع ، أما التأنيث فيحتاج إلى أعمال الفكر لتصيد علته

[٦] (ما) و (ليس) ولم اختلفت فيهما لهجـــة بنى تميم عن لهجة الحجازيين ؟

قبل أن أنساب فى تبيان هذين المظهرين الجديدين لمظاهر الخلاف وهما:

[المظهران الثامن والتاسع]أرجو من حضرات السادة القراء أن يرهفوا السمع لما سيأتى ليروا مرة أخرى أن لقومى ـ فيما نسميه الآن بالاعراب والبناء ـ رأيا سديدا ، وفكرا صائبا ، وتشريعا منطقيا فى وقت كان فيه فجر الحضارة يكافح فى حواشى السماء ، لينبثق نورا على الارض ، وفى حقبة كانت فيها مواكب الجهالة تعصف بالآراء والحرية كالريح العاتية العقيم، ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم .

١ - « ما » الداخلة على الاسماء لها معسكران قريان فى جزيرة العرب (فالحجازيون) و (التهاميون) و بعض النجديين) يخرجون بها عن وظيفتها الفطرية كحرف من الحروف . ويجعلون لهـــا سلطانا على ماسماه النحويون بعدذلك [خبرها] فيقولون إذا تحققت شروطهم [ماهن أمهاتهم] و (ماهذا بشرا) بنصب (أمهات) (وبشرا)

أما (بنو تميم) وبقية العرب ـ إلا من تقدموا ـ فيجعلون تأثيرها مقصورا على المعنى وإفادة النفى .

[رأيى] لهذا لايقولون إلا . [ماهن أمهاتهم] و [ما هذا بشر] برفع أمهات وبشر .

وتشريعهم منطقى لأن الحروف أضعف أنواع الكلمة كما هو معروف ، ولأن إهمالها هو الاصل ، ولايصح أن نقيسها على حروف الجر أوالحروف النواسخ فنى ذلك مخالفة للأصل من جهة ، وقياس على النادر،والنادرلايقاس عليه من جهة أخرى .

٢ – [ليس] وكما أهمل الحجازيون والتهاميون و بعض النجديين عمل [ما] إذا اختل شرط من شروطهم المعروفة فعل [بنو تميم] فى ليس عند انتقاض نفيها فهم يقولون كغيرهم : ليس الباطل [محبوبا] . فاذا انتقض نفى خبرها أهملوها فقالوا : ليس الطيب إلا [المسك] برفع المسك

[رأيى] ورأيى أن نظرية بنى تميم أو لهجتهم منطقية ؛ لأن [ليس] لاتتصرف بحال ؛ لانها أشبه بالحروف ، ولا تدل على زمان شأن الأفعال وهذا مادعا [ابن السراج] و [الفارسى] وغيرهما إلى القول بحرفيتها وهذا النقص سلب عنها ما لبقية الأفعال الناسخة من امتياز ، أما الحجازيون فأعملوها مطلقا.

[٧] [تمسك كل قبيلة بلهجتها] وكلا الفريقين لايحيـد عن لهجته شأن القبائل العربية التى تعتز بشخصيتها ولو انطبقت السماء على الأرض ، ويؤيد

هذا ما رواه [أبو حاتم] قال قلت لأم الهيثم : كيف تقولين : أشد سوادا مماذا ؟ قالت من حلك الغراب . قلت : أفتقولينها من [حنك] الغراب ؟ - بالنون قالت : لا . لا أقولها أبدا كذلك الأمر فى [ليس] وقد حكى اهمالها عند انتقاض نفيها [أبو عمرو بن العلاء التميمى] فبلغ ذلك [عيسى بن عمر الثقفى] فجاءه متعجبا قائلا : ماشىء بلغنى عنك ! أتقول : ليس الطيب إلا المسك !! فقال [ابن العلاء] نمت وأدلج الناس ليس فى الأرض حجازى إلا وهو ينصب ! ولا تميمى إلا وهو يرفع ، ثم قال : قم يا [بريدى] وانت يا [خلف] فاذهبا إلى [أبى المهدى] فلقناه الرفع فإنه لا يرفع ، واذهبا إلى [أبى المنتجع التميمى] فلقناه النصب فإنه لا ينصب ، فأتياهما ، فأبى كل منهما أن ينطق إلا بلهجته . فرجع الشاهدان والثقفى لم يبرح مكانه عند (ابن العلاء) . فعجب عيسى . وأخرج خاتمه وقال لابن العلاء : لك هذا !! بهذا والله فقت الناس !!

عبد العزيز مزروع (الازهرى)
المدرس بالمدارس الثانوية

(ص ١٧٨ ج ٢ من المزهر ، ٢٢٧ ج ١ من المغنى)

الشيخ محمد الخضرى بك

١٨٧٢ — ١٩٢٧

للأستاذ محمد عبد الجواد

الأستاذ بمعهد التربية للمعلمات بالزمالك

كتب الشيخ رحمه الله « تاريخ حياته » مفصلا فى عدة كراسات تربو على العشر . ولم يكتف فيه بسرد الوقائع والحوادث ، بل كان يعلق على كل شىء يراه ، أو حدث يمر به ، فيفسره أحيانا تفسيرا نفسانيا ، أو يعلق عليه تعليقا اجتماعيا . وكثيرا ماحذر من آثار الخطأ الذى كان يشاهده ، أو نصح لغيره بما يراه من صواب أو نهج مستقيم .

وقد قدر لكاتب هذه السطور أن يقتحم هذه الكراسات وأن يتصفح ماتبعها من الأوراق ، فاستهوته آراء الشيخ وملاحظاته . وكادت تنسيه مايريد من ذكر شىء عن حياة الشيخ ، رغم مانائه من مشقة فى قراءة ماكتبه بالمداد أحيانا ، وبغيره أخرى . غير أنه قد اطلع على مافيها وأثبت شيئا من روح الأستاذ فى كتابته ؛ وهو يرمى بهذا النحو من الترجمة للاستاذ إلى عدة أغراض :

الأول : ـ تعويض مانا له من التعب فى القراءة ، وما قطعه من الوقت الطويل فى الاطلاع على المكتوب . وإن استمتع بما قرأ .

الثانى : ـ أنه أحب أن يطل روح الشيخ بما كتب ، على قراء الصحيفة

الثالث : ـ أنه ينفذ لصاحب الترجمة بعض مايعتقد أنه كان يود ، من نشر شىء عن سيرته ، ولو موجزا إيجازا مخلا ، وما لايدرك كله لايترك كله ؛ وإليك ما أراد من تلخيص :

حياته فى المكتب : أشرف على السابعة وهو بين يدى المعلم فى المكتب، ويدى أبويه فى البيت .

كان أبوه عالما متدينا ، جمع إلى حب ابنه قسوته عليه ، لأنه كان ضيق الصدر سريع الغضب ، لايملك قياد نفسه إذا رأى غير مايريد . كانت عصاه إلى جسم ابنه أسرع من كلامه إلى أذنه وقلما كان يراه يبتسم لئلا يجرؤ ابنه عليه .

ولم يكن خوفه من معلمه بأقل من خوفه من أبيه ، لأنه رأى من قسوة الفقيه ، وسمع من وصية الآباء بالشدة مع أبنائهم ، ماهو معلوم من قولهم للفقيه أو المعلم « إكسر وأنا أجبر » .

قد استحوذ عليه الخوف ، واستولى عليه الذعر ، فإذا ماسئل عن شيء صاغ له من الكذب ماينجو به ، وربما علمته أمه الكذب . ويقول : إنه مهر فى هذه الصناعة ، وكثيرا ما استعان عليها بيمين الله بذلك لشدة خوفه ، على الرغم مما كان يصيب والده إذا وعك . ولكن الولد اتخذ من ذلك ذريعة إلى خداع أبيه بالتمارض ، فجمع بين رذيلتى الكذب والخداع .

اعتاد أن يوقظه أبوه فى السحر ليذهب معه إلى المسجد لصلاة الصبح جماعة وفى أول وقتها . أراد بذلك أن ينشىء ابنه على عبادة الله ، ويغرس حبها فى نفسه . فكان الطفل يذهب مع أبيه بملابس لاتقيه ألم البرد فى الشتاء وقد توضأ الوالد فى البيت وتدثر بما يكفيه .

وصف ميضأة جامع شيخون ، وبرودة مائها ، وصحن الجامع الرخام ، وذكر كيف مسح بالماء على وجهه مسحا ، وقطع الصحن عدوا ، ووقف بجانب والده وصلى فريضة الصبح ، ووالده مسرور به مع أنه قد خدعه .

لم يكن أبوه من ذوى اليسار ، فهو عالم من علماء الأزهر ، خطيب فى جامع ألماس بشارع الحلمية ، يتناول من الجهتين مرتبا لايفى بحاجه وحاج أهله إلا مع القصد الدقيق . وكان الولد يذهب إلى المكتب كل يوم ، ومعه رغيف وقطعة من النحـــاس ، هى « القرش الخردة » . يرى الأطفال فى المكتب

يتفكهون بأكل الحلوى ، فيود أن يقف موقفهم ، ولكن لاسبيل إلى ذلك بامانة الله ! .

اضطرته حالته هذه إلى اختلاس قرش من جيب أبيه حينما خلع ملابسه وهو يصف موقفه هذا بدقة ومهارة . وكرر الاختلاس وأغراه النجاح فيه حتى اقتطع من كيس أبيه مرة أربعة قروش دفعة واحدة . كان ذلك أول الشهر أراد الشيخ أن يعد دراهمه ليقسمها بين مقتسميها . فاكتشف السرقة وسأل الأم فى ذلك ! خاف الولد مغبة الحادث فأسر الى أمه بما كان ، فعادت واحتالت على الشيخ الذى غضب وألقى إليها النقود لتعدها ، بإن أعادتها إليه كاملة ، بعد أن ضمت إليها القروش الأربعة

ولم يكد يتم العاشرة من عمره حتى حفظ القرآن الكريم

وقبل أن يسرد لنا حياته فى الأزهر ذكر شيئا عن حج أبيه سنة ١٣٠٢ ووفاته سنة ١٣٠٦ لمناسبة تتعلق بهما : سافر أبوه إلى الحجاز سنة ١٣٠٢ « سنة ١٨٨٥ » وترك مع ابنه ـ وهو فى الثالثة عشرة ـ خاتمه ليقبض به مرتبه فوقع به على شهادة لأحد المجاورين . ولما عاد أبوه من الحجاز علم بالأمر من الشيخ المهدى شيخ الأزهر ، وأخبرت الولد أمه باطلاع أبيه وأسرت إليه بحيلة لدرء خطر العقوبة على هذا الجرم الكبير : وهى أن يستحلف أباه باسم شيخه الشيخ الخضرى ، وقد فعل ونجا من العقوبة .

يذكر المترجم أنه فرح بنجاته فرحا عظيما ، وورث من أبيه حب شيخه الشيخ الخضرى ، وذهب صبيحة الجمعة إلى القرافة فزار جدث الشيخ ، وأخبر أباه بهذه الزيارة ، فدعا له وأهداه هدايا حسنة .

بجانب هذه الصورة الاخيرة لحب المعلم ، بقيت عنده صورة الخداع والمكر ، ولا يدرى أيهما كان أقوى أثرا .

مات أبوه سنة ١٣٠٦ « ١٨٨٨ » وترك له أمه وخمسة أشقاء لايزال أصغرهم رضيعا ، وقد أشرف هو على السابعة عشرة . ذهب إلى شيخ الاسلام والدموع تنم عما به من الحزن ، لفقد الوالد والحيرة فى تجهيزه . قبل يد الشيخ

وقال له إن أباه قد مات . فقال له : ومن أبوك ؟ قال : الشيخ عفيفى الباجورى فقال : رحمه الله ! قل للشيخ .. يأمر المؤذنين بالتبرير على المنارات . وكفى. عاد إلى منزله وهو يفكر فى أمر العلماء الموسرين ، ويذكر أن جيرانه الفقراء قاموا بالواجب نحو جثة أبيه . ومأتمه الليالى الثلاث .

أيامه بالأزهر

كانت مدة إقامته بالازهر نحو سبع سنوات [شوال سنة ١٣٠١ ، أغسطس سنة ١٨٨٤ جمادى الأول سنة ١٢٠٨ ، ديسمبر ١٨٩٠] حضر فيها فقها ونحوا وتفسيرا وحديثا ومنطقا وبلاغة وتوحيدا

وقد أطال المترجم بصدد ما أفاد من دروس الفقه والتوحيد والمنطق وعلوم العربية والتفسير والحديث وغيرها وتعرض لشيء مما صادفه فى الكتب وحواشيها مما لايتفق مع العلوم الكونية والواقع ، وذكر كثيرا من الأشعار والقطع المنظومة ، فى قص الأظافر ، ومعرفة ليلة القدر ، ونحوها كالحكم فى جواز الاشتغال بالمنطق ، وأوجه البسملة المعروفة .

وكان شيوخه فى الفقة أربعة هم أبوه [الشيخ عفيفى الباجورى] والشيخ سليمان العبد والشيخ محمد الطاهرى والشيخ محمد ابراهيم القاياتى ، رحمهم الله أجمعين. حضر عليهم شروح ابن قاسم والخطيب ، وتلق التحرير وشرح المنهج .

وكان يظن عند دراسته أنه سيرقى عن درجة العامة فى العلم الذى يحسن العمل ويرقيه ويجعله أقرب إلى الله منهم ؛ غير أنه يعترف بانه لم يفد مما قرأ من الفقه تحسينا فى عمله ولا ترقيه فيه . فإن صلاته قبل تفقهه كانت صلاة العامة ، أمابعد ذلك فقدصارت صلاة روعيت فيهاالصناعة الفقهية ، واشتدت غفلته عمن يصلى له ، وهو لذلك يرى أن صلاته كانت أقرب إلى العمل الآلى الذى لايشترك فيه القلب إلا قليلا .

وقد قرأ فى العلوم العربية سبعة كتب آخرها شرح الاشمونى على متن الألفية .

أما علوم البلاغة فقد بدأ فى حضور شرح السعد وتلقى متن السمراقندية ، ويذكر أنه لم يكن له من وراء هذه العلوم غاية يسعى إلى دركها .

وقد نال شيء من البركة بحضور درس فى صحيح مسلم على المرحوم الشيخ البسيونى سنة كاملة .

ويذكر أنه حافظ على حضور دروسه بالأزهر ، إذ كان يذهب إليه صبيحة كل يوم ويعود منه بعد العصر ، وليس لديه ما يلهيه عن استذكار دروسه ، إلا أنه قد أوقعه سوء الحظ فى غرامه ببعض الألعاب التى منها لعبة (الدمينو) ، حيث لحظ اللاعبين فى إحدى المقاهى التى كان يمر بها ، ويتفرج فيها فصمم على أن يلعب مع لاعبيها ، وقد تأخر عن مواعيده المعروفة لوالده . وكان يخبره عند سؤاله أنه يتلقى درسا بعد العصر ، يريد أنه يخدعه كعادته . ويقول إنه بعد وفاة والده اتسعت حريته ونالت نفسه من هذه اللعبة بغيتها وبرع فيها بغشه لمن يلاعبه ، وكان يتعمد الكذب أحيانا . وكثيراً ما كان يتلهى بذلك عن صلاته . وكان إذ ذاك خطيبا مكان أبيه . وقد ذاع أمره فى ذلك ، وكاد يفتضح حاله ، لولا أنه خشى على قلب أمه من الحزن ونكبته فى وظيفته ، التى عليها قوام منزله ، فلم يعد إلى اللعب بعدئذ أمام من يخشى شر قالتهم . وهو يرى فى ذلك ، صورا رديئة وآثارا سيئة ، سجلها تحت هذا العنوان فى مذكراته .

دخوله دار العلوم :

بينما كان يمشى ذات يوم بحارة السادات (بدرب الجماميز بالقرب من مكان دار العلوم القديم) بجانب أبيه ، إذ سأله ، أحق أن هنا مدرسة اسمها مدرسة دار العلوم ؟ ، قال ذلك بعد تردد وخوف من أبيه . فوقف أبوه فجأة كأن أمرا هائلا قد فدحه . وقال له ووجهه مغضب ، هلكنا ولم نشعر ، كررها مرتين . وقد حاول الولد تعليل السؤال أو الاعتذار عنه لأبيه فلم يفلح . وكأن أباه قد شعر برغبته فى الابتعاد عن الأزهر بدخوله هذه المدرسة التى كان هو وشيوخه يرون أن فيها تعاليم تفسد عقيدة المسلمين !

وبعد وفاة أبيه بسنتين كان يدرس لبعض الأفندية من كتاب الدواوين درسين وكان الذى يدرس له النحو يعجبه أن يراه طالبا فى دار العلوم ثم مدرسا بالمدارس، فألح عليه فى دخولها ليتعلم بها من العلوم مالم يكن بالأزهر «بل ما كان التحدث به جريمة من الجرائم»، فلان له. وقام الأفندى بتقديم الطلب وحمله على الذهاب للامتحان.

وقد قبل بالمدرسة فى أوائل سنة ١٨٩١ بين من قبل، ولكن فى القسم الاعدادى الذى ألغى قبل انتهاء السنة المكتبية، غير أنه لما ألغى هذا القسم عاد فلحق بالمدرسة فى أكتوبر سنة ١٨١١ بالقسم العالى وحمد الله على الدخول.

وقد بقى بالمدرسة أربع سنوات تقدم فيها إخوانه، وكان فى نفسه منها صور ذات آثار. وهو لا ينسى فيها ألمه لحادث لا يد له فيه، وذلك أن شركة كوك طلبت إلى نظارة المعارف اختيار جماعة من طلاب المدارس العالية بها تحملهم على إحدى بواخرها فى النيل، لزيارة الصعيد وآثاره. وطلب من ناظر المدرسة أن يختار عددا من طلبة مدرسته، فاختار الأول والثانى من كل فرقة للقيام بهذه السياحة، ماعدا فرقته التى اختار منها الثانى والثالث، وترك الأول، وهو المترجم، لفقره، وهو يتألم لذلك ويقول «مسكين هذا الذى يتألم، ولا يجد من يشكو إليه آلامه، بل لا يجد محلا للشكوى». ومع اعتذاره عن إدارة المدرسة بأنها أرادت أن يظهر طلاب المدرسة بمظهر اليسار، أمام سائر الطلبة، حتى لا يكونوا عرضة للاحتقار والاستخفاف فانى — أيها الكاتب — أتألم لألمه.

وفى مارس سنة ١٨٩٥ طلب اختيار طالب بالسنة الرابعة للتدريس بمدرسة الصناعة بالمنصورة، على أن يعود لأداء الامتحان آخر العام، فاختير هو لذلك، وسافر إليها فى ١٩ من مارس سنة ١٨٩٥، وبعد شهرين عاد إلى مصر وأدى امتحانه، ثم عاد إلى المنصورة مدرسا بعد الاجازة الصيفية.

فى التدريس والقضاء

	شهر	سنة
عين فى ١٩ مارس سنة ١٨٩٥ مدرسا بمدرسة الصناعة بالمنصورة لغاية أغسطس سنة ١٨٩٩	٦	٤
فى سبتمبر سنة ١٨٩٩ نقل إلى شبين الكوم ومكث بها لغاية ديسمبر سنة ١٩٠١	٤	٢
فى يناير سنة ١٩٠٢ نقل إلى مدرسة الناصرية ومكث بها لغاية أغسطس سنة ١٩٠٢	٨	—
وفى أول سبتمبر سنة ١٩٠٢ عين قاضيا بالسودان ومكث به لغاية أغسطس سنة ١٩٠٤	—	٢
وفى أول سبتمبر سنة ١٩٠٤ عين أستاذا بكلية غردون بالسودان ومكث به لغاية أغسطس سنة ١٩٠٧	—	٣
وفى أول سبتمبر سنة ١٩٠ عين أستاذا بمدرسة القضاء الشرعى وبقى بها إلى سنة ١٩٢٠	—	١٣

ثلاثة وعشرون عاما قضاها فى التدريس ، وتخللها سنتان فى القضاء ، عمل فيها مع خمسة من نظار المدارس على اختلاف أسنانهم وألوانهم ، وهم : على ثروت ، محمد رشدى ، أمين سامى ، أحمد هدايت ، محمد عاطف بركات .

ولم يرد الأستاذ أن يمر ببلد أو ينقل إلى مدرسة بدون أن يقيد شيئا عن المكان ومن به ، ونحن نذكر قليلا مما قيده :

فى مدرسة الصناعة بالمنصورة : وبخ تلميذاً فرد عليه قائلا : «جئنا لنتعلم، لا لنسمع الكلام الفارغ ، فقال له الأستاذ : « لقد أصبت يابنى وأخطأت » . فجلس التلميذ ثم جاء إليه واعتذر . فشكر له اعتذاره ، واعتبر مادار بينه وبين التلميذ فى مبدأ عمله مرشداً له فى سلوكه مع تلاميذه .

فى شبين الكوم : كان يشتغل بدروس الخط . وبالأعمال الكتابية ، وكانت صلته بالناظر فى الأعمال الكتابية سببا لكثير من المتاعب ، لما كان يحصل

بين الناظر « محمد رشدى » صديقه ، الذى كان معه مدرسا بالمدرسة الابتدائية بالمنصورة ، والأساتذة الخمسة المشايخ .

وهو بذلك يوصى المدرسين ، لا سيما المشايخ منهم ، ألا يجعلوا لسوء التفاهم بينهم وبين النظار سبيلا ، وأكثر ما يأتى هذا البلاء من الفضول، فينبغى ألا يشتغلوا إلا بما يعنيهم ، ويتركوا ما لم يكلفوا مراقبته ، ويوصيهم أيضا بالتعاون ، لأنه إذا اختل فسد كل شىء معه ، وذكر من حوادث المدرسين فى غيابهم المصطنع بعض الحكايات .

ذكر علاقته بأهل شبين الكوم ، وأنهم لا يألفون ولا يؤلفون، بعكس أهل المنصورة ، الذين كان يغشى مجالسهم كثيرا ، وقلما كان يعرف أحداً من موظفيها . بخلاف شبين .

ذكر صداقته لمدير المنوفية « محمود صبرى باشا » وحبه له لتواضعه ، وإكرامه لأهل العلم ، وأنه كان أقوى ساعد لنشر العلم فى مديريته وذكر إحالته إلى المعاش ومجىء مدير الدقهلية مكانه .

ذكر معرفته لعبد الله الطوير بك وكيل نيابة شبين الكوم ، وسمره معه، وأنه تعلم كثيرا من الألعاب ، ومنها « البلياردو » وشغفه بها ، وبخاصة فى عصر رمضان ، لما فيها من الرياضة والتسلية ، وكذلك فى لعبة اليزبك ، من العشاء إلى السحور .

وإجمالا كان وقته فى شبين ضائعا ، على عكس المنصورة .

ذكر أنه استمر فى الكتابة ، وأنه كتب خمس مقالات ، فى المؤيد ناقش فيها المرحوم قاسم بك أمين بعض ما رآه فى كتابه .

وذكر أنه اشتبك مع جورجى زيدان بسبب رواية « عذراء قريش » وأن الذى حرضه على ذلك هو المرحوم محمد بك فريد ، وقد وصفه بقوله : « إن هذا الشاب كان من الأفراد الذين قلما أنجبت مصر مثلهم ، فقد كان مملوءاً من فرقه إلى قدمه ، إيماناً وإخلاصا ، إذا كان فى المصريين أحد قام مجاهداً فى سبيلها لا يريد جزاء ولا شكورا ، ولا يفيد من الجمهور أية فائدة ، فهو

محمد فريد ، وإذا قارنته بذلك الشاب الذى طار صيته ، علا ذكره ، (يريد مصطفى كامل باشا) رجح فريد رجحانا كبيراً ، لأن مصطفى كان يرى نفسه ثم مصر ، وفريد كان يرى مصر ولا يرى نفسه ، وأن الذى أعرفه من دخائل الرجلين وأوليتهما يحملنى أضع فريداً فى أرقى الدرجات .

أنا لا أبخس مصطفى حقه ، فهو شاب نبيه ، متمتع بوجه حسن ، وصوت حسن ، بذل مجهوداً كبـــيراً فى إقامة الحياة الوطنية ، ولـكن شتان بين الرجلين !! » اهـ .

فى الناصرية : كان مع أمين سامى بك ، ويعتبره أحسن ناظر ، وأكثرهم أدبا ، ولم تطل مدته فى الناصرية .

فى كلية غردون : ذكر أن الذى أسسها لورد كتشنر إحياء لاسم غردون باشا الذى ضحى بنفسه لمصلحة قومه . واكتتب الانجليز فى بلادهم بنفقات بنائها ، وهم قوم سباقون إلى الجود بما يعلمون أنه يبقى لهم فى الصالحين أثراً . وذلك سبب من أسباب عظمتهم ، وقوة شوكتهم

كان يعلم الفقه والأصول وبعض الدروس العربية ، ويذكر أنه تلقى الأصول على الشيخ حسن الطويل ، وعمل مذكرة كانت أساساً لما ألفه فيه

فى أوائل سنة ١٩٠٥ زار الامام الشيخ محمد عبده السودان فاهتمت البلاد بمقدمه ، الانجليز والمصريون والسودانيون وزار الكلية وشجعه بكلمات طيبة واطلع على ما كتبه فى أصول الفقه ، فامتدحه وطلب إليه قراءة الموافقات للشاطبى .

فى مدرسة القضاء الشرعى : لم يصل إلينا ما دونه عن مدرسة القضا الشرعى ، ولعل تاريخه فيها معروف للمعاصرين . ولـكنه يذكر لنا كثيرا عن صلته بالسلطان حسين وابن أخيه فؤاد .

معرفته بالسلطان حسين : بعد أن ولى السلطان حسين سنة ١٩١٤ زار الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى ، فزار الأستاذ فيمن زارهم بها . وكان عضوا فى لجنة تعديل قانون الأحوال الشخصية ، فأعد الأستاذ درسا أشار فى آخره

إلى هذا التعديل . فصافحه السلطان وضمه إلى صدره . خطب له أول خطبة في افتتاح جامع الخواص بشارع وجه البركة ، فخلع عليه خلعة من فرو السمور ومنحه ساعة ذهبية . قابل السلطان مرارا ، بعد ذلك في مناسبات ذكرها ، فمنحه في أحدها منحة مالية قدرها خمسون جنيها ذهبيا في أول نوفبر سنة ١٩١٦ ، وسافر معه في رحلة إلى الصعيد ، فشفعها بمثلها . وكانت جلساته مع السلطان ذات أثر خاص في نفسه ، وهو في ذلك يقول :

« استفادت نفسى من اتصالى بالسلطان حسين فائدة كبيرة ، هى الجرأة فى قول ما أعتقده حقا . اعتدت معه ذلك ، فكانت نفسى تحدثنى : إذا كانت هذه عادتك مع سلطان كبير ، فكيف تنزل عنها مع من هم أقل منه شأنا وأضعف سلطانا . ولا أذكر أنى زوقت له الكلام مرة ، أو حدثته بشىء لغرض إرضائه ، وكنت أشعر أن ذلك يسره ، وقد بقى يحبنى ، حتى فرق الموت بيننا ولم أجد شيئا يكافىء حبه لى إلا أنى أحببته فى حياته وبعد مماته .

أحببت أن أبقى على الوفاء لبيته الكريم ، وكنت أجد لذلك سرورا عظيما ، إلا أن السيدة العظيمة ، والسلطانة المحترمة ، السلطانة ملك ، قللت ما كنت أشعر به من سرور الوفاء ، بما كانت تفيضه على من أياديها من وقت لآخر ، حتى صرت أخشى أن تكون تلك الأيادى هى التى تحملنى على التشرف بزيارتها » اه

محمد عبد الجواد
الاستاذ بمعهد التربية العالى

أغاريد السحر

للأستاذ على النجدى ناصف
المدرس بكلية دار العلوم

ديوان للأستاذ الشاعر : على الجندى ، وسيط الحجم والقطع ، يقع فى قرابة أربعمائة صفحه ، ويتألف من أربعة أبواب : أولها فى الدين والتاريخ ، وبعض الموضوعات العربية والشرقية ، وقد جعل عنوانه « من الأعماق » . وثانيهما فى الحماسة والوطنية ، وبعض مسائل الحرب والسياسة ، وقد جعل عنوانه « أصداء الحوادث » . والثالث فى شكوى الشعر وآلامه ، وجعل عنوانه « أنفاس الأشجان » . والرابع فى غزل الصبا . وجعل عنوانه « نفخ الغوالى » .

فالديوان يعرض هموم قلب غزل ، وخطرات نفس شاعرة فى بعض ما عناها من أمر ، وأمضها من ألم ، وآثارها من شكوى . وبعثها من رجاء ، وردها من يأس ، ويصور غير قليل من مسائل مصر القومية ، ومسائل الشرق والغرب التى لنا بها اتصال وثيق . أى أنه يعد بحق معرضاً لحياة الشاعر الخاصة كما يحياها ، ولحياة مصر العامة كما تمثلت له ، وانفعلت بها نفسه .

ولقد قرأت هذا الديوان قراءة دارس ناقد ، يريد أن يقدره بقدره ، فى غير بخس ولا محاباة ، لا تمنعه صداقة الشاعر ولا حبه له أن يتحرى الحق فيه ، ويزنه بميزانه الدقيق ، فالحق أعز من أن يخذل وأقوى من أن يغلب ، وأبين من أن يطمس ، مهما جهد له الجاهدون ، وافتن فى الكيد له المفتونون لهذا لا أريد أن أسبق إلى الحكم له أو عليه ، ولا أن أرسل الكلام فيه فرداً مبهماً لا يؤنسه شاهد ، ولا يجلبه بيان .

مقدمات

وأول ما يلقاك من الديوان قصيدة للشاعر ، يصور فيها نفسه ، ويذكر كثيرا من خلاله . وكأنه أراد أن تعرف منها طويته ، وسمات شخصيته ، كما عرفت من صورته الشمسية قبلها - سمته ، وملامح شخصه . تلك صورة النفس وهذه صورة الجسم . والصورة الشمسية تمثـــله فى مطلع الشباب ، ونضرة الأهاب . والذين يعرفونه فى هذا الطور من حياته هم الذين يعرفون مبلغها من الاتقان وصدق الدلالة . أما صورته الشعرية فتمثله حق التمثيل ، كما يعهده أصدقاؤه جميعا ، حتى الفخر فيها بالحسب والنسب لم يعد الشاعر فيه حد الواقع المعروف . والقصيدة كلها جديرة بالرواية ، لكننا نجتزىء منها بهذه الأبيات ، مراعاة للمقام :

لكل امرىء جهر يخالف سره ... وما لى من سر يخالفه جهرى
تطالع فى وجهى صحيفة خاطرى ... وتقرأ فى عينى ماحاك فى صدرى
خلقت كعيسى لا أجن ضغينة ... بقلبي ولا أطوى ضلوعى على غدر
ولا ناسيا صنع امرىء وجميله ... إلى ونسيان الجميل من الكفر
ولم أر فى عسر مقرا بذلة ... ولا ساحبا ذيل المخيلة فى يسر
ولا ضارعا إلا إلى الله خالق ... وإن قلبتنى الحادثات على الجمر

وتلى هذه القصيدة مقدمة الديوان ، وهى مسهبة ، تستغرق أكثر من ثلاثين صفحة ، كتبها صديقه الأستاذ محمد صالح سمك ، وجعلها ترجمة لحياته وافية ، أو صورة له نثرية ، تبين لدارس الديوان كل ماقد يحتاج إليه عن صاحبه من حقائق ومعلومات . فهى مقدمة من نوع جديد ، أراد الشاعر بها التعريف وخدمة الدرس ، لا مايراد عادة بالمقدمات . ولو أراد لقدمه من يود من أعلام الثقافة وأمراء البيان . ونحن إذ نحمد هذه المقدمة لا نذم المقدمات المعتادة ، ولا ندعو إلى تركها ، فليس إلى ذلك سبيل ، ولا فيه مطمع ، ولكننا نود لو تضاف إليها مقدمات كهذه ، يكون فيها للدارس هداية وتبيان .

وإذا ما خلصت إلى الديوان ، لم تخلص بذلك من المقدمات ، فإنك واجدها أبدا فى رءوس الصفحات عند مطلع كل قصيدة ، وواجدها كثيرا أيضا فى الهوامش والذيول . فأما الأولى فلا أرى أن لها وجها ، ولا أن بأحد إليها حاجة ، لأنها تعليقات على الموضوع من المنثور أو المنظوم ، أو منهما معا يرويها لغيره ، أو ينشئها إنشاء . على أنهـــا فى شعر الغزل تعين المناسبات ، وترتب الوقائع ، حتى تجعل منه قصيدة متتابعة الفصول ، تجمع بين الحبكة والانساق . فهل تراه آثر أن يلتزمها فى سائر الأغراض ، طردا للديوان على وتيرة واحدة ، كما كان يفعل قدامى المؤلفين . أما المقدمات الأخر ، فالحاجة إليها ماسة ، لأنها تؤرخ القصائد ، وتدل على مناسباتهـــا ، ففيها عن تلك كفاية وغناء .

فن الشاعر

— ١ —

تغلب السهولة والوضوح على ألفاظ الشاعر ، وتجرى فى تأليفها على أصح وجوه التأليف ، وأبعدها عرقا فى العربية ، وأشبهها بأبلغ الآثار فى أزهى العصور ، فلست بواقع فيها مهما نقبت على دخل ، أو سخف ، أو تفكك ، أو هزال . وربما أمعنت فى السهولة والرقة ، فإذا هى الماء الدافق تصببا وانحدارا استمع لقوله من قصيدة « عبث الغيد » :

أيها الخاطب ودى ... لا يكن قلبك صخره
بلغ العشق مـــداه ... فامنح العاشق زوره
أى ثأر لك عندى ... يقتضى موتى حسره
أتخاف الغدر منى ... أنا من تأمن غدره
شاعر الأخلاق يأبى ... كل ما تأباه عذره
جاء من كندة حرا ... والفتى يتبع نجره

وقد تقتصد فى السهولة ، فإذا رصانة مهيبة ، ونخامة وقور ، وأصداء

متجاوبة ، ورنات متجاجلة . استمع إليه فى قصيدة « طيف خيالها »

ألمت به ليلى وقد رنق الكرى	بعينيه وهنا بعد سهد ليالى
على حين ليلى قد تناءى مزارها	وبتت على عمد وثيق حبال
سعى بيننا الواشى فأضمرت القلى	وكم من هوى أودى بقيل وقال
ولم أقترف ذنبا ولا لى جريرة	سوى أننى أزهى بها وأغالى
وقد كان يضنى القلب هجر دلالها	فكيف به إن كان هجر ملال
فياليت شعرى مادهاها فأسرعت	إلى وكانت لاتجيب سؤالى

وقد يسبق إليه بعض الكلمات يقل استعمالها فى المعنى الذى أورها إياه ، ولكن لايسبق إليه شىء من الكلمات الجافية ، أو الثقيلة الأداء . استمع له يقول من قصيدة « هجرة الحق والإيمان » :

وغرام للنفس أن يظلم الأهـ	ـل على قربهم ويبغى القبيل[1]

ويقول من هذه القصيدة أيضا :

إنها جنـــة الإله على الأر	ض فبسل على الأثيم الذحول[2]

بل إنه ليحتفظ بطابعه من الرقة والرشاقة فى الرجز ، كما يحتفظ بهما فى القصيد . على ماتقتضيه طبيعة الرجز ، وتدفع إليه خصائصه من التوعر والغرابة ، استمع إليه يقول من أرجوزة « عمامتها البيضاء » :

عمامة من يقق الحرير	تضىء مثل هالة البـــدور
كأنمـا خيوطها من نور	تندى بريا الزنبق المنضور
وعبق الجادى والكافور	تخالها فى الفاحم المنشور
بشائر الصباح فى الديجور	ليثت على رأس رشا غرير

ومرد هذه المزية عند الشاعر إلى صحة ذوقه ، وسجاحة طبعه ، وغزارة روايته من منتخل المنثور والمنظوم .

— ٢ —

وهو يتناول معانيه قصدا ، ومن قريب . فلا التواء ، ولا تعسف ،

(١) الغرام هنا : العذاب الدائم (٢) بسل : حرام .

ولا إيغال ، مما يكلف عنتا ، أو يسوم احتيالا . فإذا هي واضحة مشرقة ، تسابق ألفاظها سعيا إلى الأذهان . وهذا مثال منها ، لم نؤثره بالاختيار ، ولكنا نشرنا الديوان ، فعرض لنا عفوا :

يالسان الإسلام ياقلبه الخا　فق حبا ياليثـه الصوالا
قم فأنذر قوما يغطون نوما　والرزايا عليهم تتـوالى
قل لهم : إنما بناة المعالى　كيف نغدو على الفرنج عيالا
قل لهم : هذه الشعوب تعاوت　حولنا أذؤبا وثارت صلالا

ولا تفارقه هذه الخاصة أبدا ، حتى حين يتعاطى الحكمة ، ويضرب الأمثال ، لتأييد مذهب ، أو احتجاج لقضية ، لأنه يعول فى فلسفته وخياله على الحس أكثر مما يعول على العقل ، ويؤثر فى صوره الحركة والحياة على الألوان والخطوط . فمن أمثاله وحكمه قوله من قصيدة « تحية الثورة العربية » :

ياقوم بعض وعيدكم فمتى　هاب الغضنفر صولة الهر
عسف الزمان يزيدنا كرما　كالمسك نفاحا على الجمر

وقوله من قصيدة « بطل حطين » :

كيف يطوى الخذلان أعلام جيش　البطـولات كلهـا نصراؤه
كل غار لم يدرع شرف النف　س هوى قبـل أن يتم بناؤه

وقوله من هذه القصيدة أيضا :

لم ترخ له المخيلة عطفا　وجميل من ظافر خيلاؤه

ومن تخيله وتصويره فى قصيدة « جبل طارق » :

علم تسامى غاربا وسناما　تزهو الكواكب فوقه أعلاما
يأتى على غر السحاب جبينه　تقبيلها فتقبـل الأقداما
ويسير زخار العباب بسفحه　متطامنا يحنى لديه الهاما
وتمر هوجاء الرياح حياله　حسرى على أعتابه تترامى
وترى الحوارى لاتنال سلامها　إلا إذا ألقت عليه سلاما
ما باله حضن المضيق كأنه　صب تدله فى المضيق غراما

يرعى شواطئه بمقلة ساهر عاف المنام فلا يذوق مناما
رصد على البرين مد أصابعاً سفعا تصب على المغير حماما
وثوى على البحرين أرعن لابسا وشى الحديد على الجلامد لاما
لو ساور الجيش اللهام شعابه لقى الحتوف قذائفا وسهاما
أو خالفت شم الدوارع أمره طاحت على ثبج المياه حطاما

ولعل مرجع ذلك عنده إلى طبيعة المعلم وما اعتادت من التيسير والتقريب والأخذ بأسباب الأفهام والتمكين . ولو أنه جرى فى فنه على غير هذا السنن لكان منه ذلك عجبا ، فأغلب الصفات النفسية عليه الشعر والتعليم . فهو معلما شاعراً أكثر منه أى شخص آخر ، قضى ماتقدم من عمره بين التعليم والشعر ، والتهيؤ لهما . فلا سبيل له طائعا أو كارها إلى التخلى فى شعره عن طبيعة المعلم وملكاته فى التفكير والتعبير ، ولا إلى التخلى فى تعليمه عن طبيعة الشاعر وملكاته فى التخييل والتصوير . وسببان آخران ، برجعان إلى النفس ، لا إلى الصناعة والعمل . أحدهما أن الشاعر رقيق الطبع ، متواضع ، لا فيه كبرياء ولا غرور .

ومثله ولا جرم حقيق أن يفكر فى قرائه ، ويحرص ما استطاع على أن يكون لهم مفهوما ، ولديهم واضحا . والآخر أنه كما جاء فى مقدمة الديوان يخاف الأشباح ، ويتقيها . فكأن فيه أنسابا لمرئيات والظواهر ، ووحشة من البواطن الكامنة ، والخفايا المستسرة .

— ٣ —

وأسلوبه عربى محض ، لاتشوبه شائبة عجمة ، ولا ترى عليه أثارة سخف أو ضعف . وأين منه ذلك ، وهو يحفظ القرآن الكريم ، ويعول فى ثقافته أكثر مايعول على نتاج العقلية العربية . وأسلوبه على نقائه لايكاد يعتسف ضرورة ، أو يأخذ على غير أليف مأنوس . لذلك تسمع له أبدا موسيقا عذبة النغم ، مستوية الجرس ، لاتحس فيها نبوا ، ولا تجد منا نفوراً أو انقباضا .

وكثيراً مايكون أسلوبه خطابياً يغلب عليه التنويع والتقطيع، فاسترسال وتوقف أو التفات أو اعتراض . وإخبار فتساؤل أو تعجب او إضراب ، فاذا جلجلة يتنوع فيها النغم ، وتتقاصر المسافات ، وتتابع الحركات فى رشاقة وإسراع . استمع لقوله من قصيدة « صولة الجمال » :

أقول لقلبى وهو أصل بليتى ومن كان ذا قلب فشره بالهم :
أقلى ، لقيت الويل مالك كلما نهيتك عن نعم أبيت سوى نعم؟
تمنيك نعم وصلها فعل خادع وهيهات مامنتك، من لك بالنجم؟

وقوله من قصيدة « بين بلاء الحب وبلاء العذل » :

أصحبى أنتم ؟ كيف هنت على صحبى؟ وكيف تولوا دون غيرهم حربى ؟
وكيف اغتدوا إلبا على مع الهوى وبعض الذى ألقاه لو أنصفوا حسبى
جنوا لى هما فوق هم يئودنى فوا عجبا للحب خطبا على خطب
أأشكو؟ لمن أشكو؟ ولو قد شكوتهم إلى الله أخشى أن يعاقبهم ربى
وأعتب لا، بل سوف أغضى على القذى وكيف ؟ وقد جل المقام عن العتب

ونعرف هذه الشنشنة من شوقى فى بعض شعره ، وبخاصة قصيدة « شهيد الحق » ، ونعرفها من قبله فى بعض شعر المتنبى ، وبخاصة قصيدته « بأية حال عدت ياعيد » . وكلا الشاعرين من أساتذة شاعرنا وأئمته الذين يحظون من حبه وإعجابه بقسط عظيم .

— ٤ —

وهو فى جملة شعره جياش العاطفة ، صادق الشعور ، بادى الانفعال . فما من قصيدة من قصائده الكبرى إلا تجد فيها هذه الأوصاف واضحة المعالم والسمات ، لايختص بها فن دون فن . ولكن لكل فن منها نصيب ، ولو أنها تبدو فى الغزل أكثر وضوحا ، وأبلغ تأثيرا. وهذا طبيعى، فغزله حق وصدق يروى وقائع وقعت له ، ويصور عواطف جاشت بها نفسه ، واهتزت لها مشاعره ، فى فورة الشباب ، وسورة الصبوة . وليصدق من شاء أنى رحمت الشاعر . وبكيت رقة له . وعطفا عليه فى قصيدتيه : فجيعة العاشق ، وجنون

الشعر . وتصور الأولى حاله حين أنهت إليه أنها خطبت، أى صارت لغيره ، ولم يبق له منها غير الحسرة والذكرى . وتراه فى هذه المحنة جازعا يتجمل ، وموجعاً يتصبر ، ووفيا يضنيه الوفاء رهقا ، يؤثر سعادتها على سعادته ويضن بها أن تحتمل من ناحيته هما ، أو تستحق لأجله ملاما :

أنت الحياة لنفسى ... فلتنعمى ياحياتى
حسبى من الحب أنى ... أحيا على الذكريات
لست الوفى لليلى ... ولست قيس هواها
إن ساءنى أن ليلى ... مناى نالت مناها
وأين منى قيس ... وهو الخصيم لورد
وورد ليلى لليلى ... منحته صفو ودى
نعم فؤادى يهوى ... من أجل ليلى الخطيبا
وكيف يبغض قلبى ... شخصا إليها حبيبا

وتصور القصيدة الأخرى حاله حين خانه التجلد ، وغلبت عليه الفجيعة، فاذا اللوعة الصادعة ، والعذاب الأليم :

ادفنونى حيا ، وهل أنا حى ؟ ... وأريحوا مضنى الجوى من جواه
لست آسى على صباى وقد شا ... ب فؤادى فى عنفوان صباه

وهذه قصيدة شهداء المعلمين مثلا من صدقه فى غير الغزل . اقرأها كما قرأتها مرارا ، وانظر ماذا يصنع الشعر فى النفس حين يتوافى له التوفيق ، وبراعة التصوير ، وصدق العاطفة . ودونك منها هذه الأبيات حتى ترجع إليها فى الديوان :

ماغاله الموت بل أودى به العمل ... كيف الحياة ولاسلوى ولا أمل؟
قالوا : هو الأجل المحتوم قلت لهم ... لو لم تخنه المنى ماخانه الأجل
يأس وبؤس يضيع العمر بينهما ... كلاهما شر مايمنى به رجل
أغرت به الموت أعباء تحملها ... لا يشتكى ، بعضها يعيا به الجبل
أمانة تثقل الأعناق مابعثت ... إلا لها أنبياء الله والرسل

قالوا: بها انهض وسر فوق القتاد ولا | تمش الهوينى، ولا تفتر، لك الهبل
هو الشهيد وإن لم ترو من دمه | بيض السيوف ولا الخطية الذبل

شخصيته

— ١ —

على الجندى رجل مثالى، يؤمن بالكمال الانسانى، ويخلص له، ولا يقبل التخلى عنه أو الترخص فيه، نزولا على حكم الضرورة، أو أخذا على سنن المصانعة والمجاراة. فليست الحياة عنده مغانم تؤخذ، ولا فرصا تنتهز وكفى، ولكنها مع ذلك أوقبله شرف وإباء، ومحبة ووفاء، وكرامة وتصون وقد وكد هذه المعانى عنده، وزاده بها إيمانا وعليها حفاظا - غلبة الحياء عليه، وتحرجه من كل مايمس شرف الحسب، وأصالة النسب، إخلاصا لهما، واعتزازا بهما:

أستغفر الأخلاق ماحسبى | يرضى الدنيـة لى ولا نسبى

وله من قصيدة «أضاليل الأمانى»:

لا تعذلوه على الأخفاق كم رجعت | من صيدها الأسد لم تكتب لها الظفر
لست القصير حجا، لكنه خلق | عن كل رذل وسفساف به قصر
أرى موارد إن تعذب لمن وردوا | فالسم إن صدروا والشرى والصبر

لكنه رأى الحياة على غير مايفهم، فأنكرها، وبرم بأهلها، وآثر العزلة على الخلاط، والانطواء على الانبساط. اغتناما للعـافية، وتقززا من الواقع الكريه:

برمت بدهرى بل برمت بأهله | فما الذنب للأيام بل لهم الذنب
أرقهم قلبـا هو الصخر قسوة | وأكرمهم نفسا هو الغادر الخب
يخونك من تصفيه ودك منهم | على حين لا ينسى الوفاء لك الكلب
خطبت الوداد المحض فى الناس جاهدا | فما خطبة إلا أتى إثرها الخطب

إلى أن قال :

ساحيا وحيدا كالطريد وربما | يسر الفتى بالبعد إن ساءه القرب
أردت على رغمى الخيانة أسوة | بصحبي فما لي إرادتى القلب
وعاصانى الطبع الكريم ومن يكن | له محتدى بأبى الدنايا له الضرب

وربما رجع النظر فى أمره وأمر الناس ، وعرض موقفه منهم وموقفهم منه ، فشبهت عليه الحقيقة ، وخيل إليه أن الوظيفة هى التى جنت عليه ، وردته عن النجاح ، بما قيدت من حريته ، وأوهنت من قوته ، وأذهبت من بشاشته فراح يلحاها ، ويود لو خلص منها ، فتنشط مواهبه ، وينفسح لفنه المجال :

بنى وطنى خلوا سبيلى وأنصتوا | يطاعكم منى على النأى حسان
أيرضيكم أن يخرس القيد معز فى | ويذوى فى صدرى من الفن بستان
دعونى أسجع فى ذرا الأيك أو نح | فيطرب مشتاق ويبكى أسيان
وأقسم لو صدعت غل وظيفتى | لغردت تغريدا له يرقص البان

على أنه فى تبرمه وشكواه لا يحقد ، ولا يصر . فما يكاد يصيب خيرا ، أو يظفر بمرجو حتى يغمره فيض من الرضا والسكينة والمودة . قال وقد سابق مرة فجاء سابقا :

رعينا لمصر عهود الوفاء | وإن ظلمت مصر أهل الأدب
هى الأم فى كل حالاتها | لها الحب فرض علينا وجب
تطالبنا أن نصون الوداد | ولسنا نطالبها بالحدب
نشيد بأمجادها الخالدات | ونشدو بأمداحها فى العرب

وما أرى بالوظيفة بأسا كبيرا ، ولا أن لها عليه كل الجناية ، ولكنه أراد الحياة على غير طبعها ، وتوقع من الناس ما لا يكون فوقعت لذلك الجفوة ، وكان الانقباض والنفور . فما تصفوا الحياة . ولا تطيب الصحبة الا لأحد رجلين : رجل لاءم بينه وبين عصره ، وراض نفسه على الاستجابة لنوازعه ومطاوعة مقتضى أحواله . ورجل متسامح صفوح ، يأخذ الحياة جملة ، ويعاشر الناس وإنه ليتوقع الاساءة منهم أبدا ، فإن وقعت لم يتعاظمه أمرها ، ولم

يشتد عليه وقعها ، وإن كانت الحسنة أكبرها ، وطاب بها نفسا ، كما يطيب بالخير يأتيه من حيث لا يحتسب .

— ٢ —

وهو مسلم متدين ، قابض على دينه ، مؤمن به إيمانا راسخا . وعنده أن لا صلاح لحال المسلمين ، ولا سبيل لهم إلى النصر على أعدائهم ، واستعادة مجدهم إلا العود إلى الدين ، وانتهاج سنن الكتاب العزيز :

عجبت للمسلمين اليوم كيف عنوا ... للحادثات وذلت منهم القصر
تعدو عليهم ذئاب ليس ينقصها ... من ساكن الغاب إلا الناب والظفر
وبين أيديهم الذكر الحكيم هدى ... لو أنهم نصروا أحكامه انتصروا

إلى أن قال :

عودوا إلى السمحة البيضاء فهي لكم ... حصن النجاة إذا مانابت الغير
مشى على نورها آباؤكم قدما ... شم المعاطس لا ضعف ولا خور
كانوا الرياحين فى ظل السلام وما ... كانوا سوى الأسد والخطى يشتجر

وهو يرى أن المصائب التى تنتابنا من آفات وأمراض ، تنقص الأموال والأنفس والثمرات ليست إلا عقابا من الله على مخالفة دينه ، والانحراف عن صراطه المستقيم :

قد بخلنا فعاث فى قطننا الدو ... د فسادا وبارت الأسواق
ورمينا بالانقسام وبالسقـ ... ـم عقابا وهو الجزاء الوفاق

واستمع إليه فى هذه القصيدة أيضا ينعى علينا بعض ما نحن سادرون فيه من مناكر وآثام ، نبذر فيه المال بغير حساب ، ونضن بالنزر اليسير منه على إصلاح حال الفلاح :

رب رحماك آد كاهلنا العبـ ... ء وناءت بغلها الأعناق
أكل العمر ماجمعنا من الما ... ل وأخنت على العقول الزقاق
وجرى الشيب والشباب وراء الـ ... حسن ركضا فكلنا عشاق

وشطوط البحار تحفل بالرجـ   س ويلهو فى رملها الفساق
والملاهى نشكو نكايتها فيـ   نا وما جره علينا السباق
ورأينا الفلاح يقتله الجو   ع ولولاه أعوز الانفاق

وهو يمقت أوربة أشد مقت وأعنفه . ويصف ساستها بالغدر ، وخلف الوعود ، وإشاعة الخوف فى الأرض، والعدوان على الضعفاء ، خسة وبغيا :

توزع الأقوياء الشرق بينهم   نهبا سوى ماحماه المرهف القصل
يخشى القوى وتحميه مهابته   ظفر المغير وللمستضعف الهبل
يفنى الزمان ولا تفنى لهم حيل   وجند إبليس لاتعييهم الحيل
فلا تغرنك ألفاظ منمقة   منهم فرب غزال صاده الغزل
شريعة الغاب أوربا تدين بها   فكل ماتخرج الأيدى لها نفل

وهو فى جملة أمره متشائم حزين ، تثقله الهموم ، وتضنيه الكآبة ، ثم لايجد فى الناس من يشكو إليه ، ويأنس به . فيتجه إلى هلال السماء ، يبتغى عنده الإشكاء والإيناس ، ولكنه لايكاد يرى نضرته ، ويؤخذ بوضاحة جبينه حتى ينصرف عما تهيأ له ، ويأخذ فيما هو أعلق بذهنه . وأغلب على نفسه من أحاديث الكآبة والهموم ، فنصح للهلال ألا يخدع بحاضره عن مستقبله ، ويغفل عن نحسه فى سعده ، فينسى أن كل نضرة إلى ذبول ، وكل كائن إلى زوال . وإن طال الزمان . كأن الشاعر قد صار إلى حال لايروقه فيها ، ولا يخف عن نفسه معها إلا مشاهد التجهم والعبوس :

أترى ياهلال تسمع شكوى   إن شكا بثه السرى النبيل
ضقت ذرعا بالدهر والأرض والنـ   ـاس فهل يرتجى إليك وصول
ياهلال السماء يابن ذكاء   أنت فى الأفق خنجر مسلول
لاتغرنكَ نضرة وبهاء   وجبين على السرى مصقول
كل نجم وإن تألق دهراً   كتب الله أنه سيزول

وقد تنقشع الكآبة عنه ، أو تخف شدتها عليه ، فتطيب نفسه ، ويسكن جأشه ، وتأخذه دعابة عذبة رقيقة ، تصحبها ابتسامة حائلة معجلة ، كأنها لمحة

البرق ، تلوح من خلال السحب المتراكبة فى الأفق البعيد :

طلبت الصوف عاما بعد عام فعاقتنى الحواجز والسدود
ولما أقبل (البون) المرجى إذا بالنقد من كفى بعيد
فقلت لجيبى الخالى عزاء فان النحس يعقبه السعود
وكم نعمى أتت فى طى بؤسى ووصل راح يزجيه الصدود
وحين تقطعت أسباب عسرى وشرد فاقتى العهد السعيد
وجاء (البنكنوت) إلى نضراً كما رفت على الصقل الخدود
وجدت الصوف مفقودا بمصر كأن الصوف وارته اللحود

وهو فى حقيقة أمره متواضع ، لا زهو عنده ولا مخيلة حتى لتراه بعض الأحيان لا يكاد يعرف لنفسه مزية ، أو يراها حقيقة بتقديم . استمع إليه وقد سبق فى مباراة كيف يفسر هذا السبق ، وإلى أى سبب يعزوه :

سبقت بحظى لا بالأدب ونلت على الضعف أولى الرتب
وجاء بى الشعر رأس الرعيل ولو أنصف الشعر كنت الذنب
فجليت غير مجل كما يطير الدخان أمام اللهب
وكم سابق فى مجال لرهان وأولى بغير يديه القصب

أما هذا الفخر الكثير ، نمر به فى مواطن شتى من الديوان فليس مبعثه الزهو أو الغرور ، ولكن مبعثه فيما أعتقد هو الاعتصام والتماس العون ، كأن الرجل كلما أخلفه الحظ ، وساء فى رأيه احزاء ، على حين يسبق المتخلف ، ويمضى قدما فيما هو ميسر له - كأن الرجل حينئذ تراوده نفسه أن يغير من حاله ، وينهج غير نهجه ، فلا يجد ما يقنعها به ، ويستعينه عليها إلا هذه المفاخر يعرضها عليها ، ويعددها لها ، عسى أن يكون لها منها عزاء وسلوى .

وهو لا يكثر من الهجاء ، ولا يشتد فيه إلا مجاريا ، ولكنه على الحالين أليم شديد . استمع إليه فى قصيدة « بنات الطرء » ، وتأمل كيف أوسع الطليان زراية وسخرا ؟ وكيف أذاقهم بما أساءوا إلينا إبان الحرب الأخيرة - ذما

وجعاً ، هو على الحر أشد من وقع السهام :

ليس فخرا قتل البرىء المسالم — فأرونا جلادكم فى الملاحم
أترون الحروب وهى فنون — أن تروعوا تحت الدجى كل نائم؟
شرف الأسد أن تصول جهارا — فتكة الغدر من خلال البهائم
يابنى رومة المغاوير مهلا — إن قتل الجيران إحدى العظائم
مالكم كلما أمضتكم الحر — ب ظمئتم إلى إقتراف الجرائم؟
ليت شعرى ماذنبنا إن منيتم — فى الميادين بالخطوب الدواهم؟
أو نسطيع أن نحيلكم أسـ — دا ولم ترزقوا طباع الضراغم؟
خفضوا الحزن واقنعوا بالذى ركـ — ب فيكم فالطبع للنفس حاكم

وهو فى جملة غزله متحرز محتشم ، يمسكه حياؤه وعفته ودينه ، ويرده فهم صحيح لوظيفة المعلم . وشعور عميق بما يجب أن يكون عليه من خلق كريم . وقد لخص لنا معناه من الغزل ، وغايته من حب المرأة والإعجاب بجمالها تلخيصا صادقا وافيا فى قوله من قصيدة « شماتة الأصدقاء »

وكم مدلى سحر الحسان حبائلا — فأبت إلى رشدى وأفلت ناجيا
سلام على الأخلاق إن ذهب الصبا — بلب المربى أو أطاع التصابيا
ولست عدو الحسن حاشاى إننى — أرى الحسن ريحانى وروحى وراحيا
وكيف ولم تحو الجوانح مضغة — كقلبى ينبوعا من الحب صافيا
ولكننا لا أمنح الحسن مهجتى — إذا لم يكن معنى من النبل ساميا
أهيم به كالزهر حسبى أننى — أراه جمالا فى الخمائل ساريا
فيمتعنى عينا وأنفا وخاطرا — وآنف أن يمسى بكفى ذاويا

ولا يعدمك أن تقع فى غزله على سذاجة المتدين ، يصحبه سمته ، وتلازمه أدواته أينما حل :

وإليك الخيار أن تنجزى الوعـ — د وقيت المطال أو تخلفينى
أنا بالله مستجير من الهجـ — ر وبالذكر والرسول الأمين

وهو شديد الوطأة على البخلاء ، يفتن فى تصوير نقائصهم ، ويدعو إلى الفض من شانهم ، ويتمنى لهم المكارة والآفات :

الناس فى اللؤم أنواع وشرهم … عندى البخيل ألا سحقا لمن بخلا
يا ليته حين لاتندى أنامله … بالنائل النزر يندى وجهه خجلا
أعجوبة فى الورى أن البخيل على … فقد الرجولة يدعى بينهم رجلا

إلى أن يقول :

ماذا على الموت لو أخنى بكلكله … على اللئام فنشفى منهم العللا
ما نفع زعنفة بالمال قد فتنوا … لايحسنون سوى تحصيله . عملا
لو كان لله ما للمال عندهم … من الجلال لساروا فى التقى مثلا

وعلى مقدار كرهه للبخلاء ، وشدة سخطه عليهم تجد حبه للفقراء ، ورحمته بهم ، وألمه لما يلقون من عسر وحرمان . وأشد ما يكون كذلك إذا كان لهؤلاء الفقراء ذكر معلوم ، وسابقة مذكورة . إستمع إليه فى قصيدة «جبر الرسول» وانظر كيف يكاد يذوب برا وحنانا :

أتتنى عنكم الأنباء تترى … فإن صحت فقد عظم البلاء
أحقا أنكم بتم جياعا … ومن واديكم نبع السخاء؟
وأنكم حيال القبر صرعى … أنينكم يغص به الفضاء
تفيض دموعكم ملء المآقى … فيمسكها التصون والإباء

ثم استمع إليه فى خاتمتها ، وقد بلغ غاية ما يبلغ المقل من السماحة والفداء :

أجيران الرسول دمى وروحى … فداؤكم وإن قل الفداء
شجانى خطبكم فبكى قريضى … عليكم والقريض له بكاء
ولو حيزت لى الدنيا جميعا … لجدت بها وفى وجهى الحياء
وكنت كفيتكم جدوى أناس … إذا نودوا أصمهم النداء
وكان لكم ولا من عليكم … ثواب الله دونى والجزاء
ولكن حسبكم والمال يفنى … دعائى ربما نفع الدعاء

وهو وطنى متحمس ، شارك فى الثورة الأخيرة بنصيب ، وكان له فى

تسجيل حوادثها، وإذكاء الشعور بها عمل مذكور . وفى قصائده : « النفخ فى الصور » ، و« لجنة ملنر » ، و« عسف السلطة العسكرية » ، وغيرها آية ذلك ومظاهره . وهو على حماسته ، وشدة غيرته الوطنية ينكر استباحة الأعراض والولوغ فى الكرامات لتأييد الرأى ، ومناصرة الحزب . شأنه فى ذلك شأن كل مثقف كريم ، يأبى المهاترة واللدد ، ويعترف بحق الحرية للناس جميعا ، قال من قصيدة « المعارك الصحفية » .

أنى فتحت صحيفة وقعت عينى على أنقاض تمثال
ياويحكم ألقوا معا ولكم هذا البناء جهود أجيال
زعماء مصر على كرامتهم مرغتموهم فوق أوحال

ثم قال :

بالأمس أكبرتم بطولتهم واليوم باتوا غير أبطال
أتراهم فى ساعة سلبوا ما كان من فضل وإفضال

وهو فى وطنيته الجامعة عربى شرقى ، يفخر بالعرب ، ويتغنى بمجدها ، ويحب شعوبها ، يدافع عنهم ، ويأسى لما يحيق بهم من بلايا الاستعمار . وهو مع ذلك يبر الشرق ، ويغار عليه ، وينكر تخاذله ، وتخلى بعض أبنائه عنه . وانضمامهم إلى أعدائه ، مما مكن للغرب منه ، وهيأ له بسط سلطانه عليه . وترى آثار هذا وذاك جلية فى قصائده : « تحية الثورة العربية » ، « وأيقظ النيام » ، « ولبنان الحر » ، « وتعارف الشرق وتآلفه » ، « وشباب العروبة » وغيرها . ومن قوله عن العرب فى قصيدة « أيقظ النيام » :

أين قحطان أين عدنان أين السـ مر حتما والبيض تزهو صقالا
ظفر الترك باللـــواء وبتنا نملأ الجو من عويل الثكالى
ذاك صهيون قبح الله صهيو ن ، تمادى فى غيه واستطالا
لاتقولوا : ما تفعل الريح بالطو د فقد يقتل البعوض الجمالا

ثم قال :

انصروا الله واحقوا عهد بلفو ر فقد كان خادعا ختالا

أدرى فى الجحيم ما جره العهـ ـد وأن التنفيذ بات محالا

ومن قوله عن الشرق من قصيدة « أيهما المسئول » :

أخلاقنا داؤنا وأى فتى أصيب فى خلقه فلم يهن
مصيبة الناس فى خلائقهم أخف منها مصيبة الدرن
أدواؤنا القاتلات ما تركت فى الشرق ذا غيرة بلا شجن

ثم قال :

شعوبه كلها سواسية تمد للغرب عين مفتتن
فى كل صقع أرى صنائعهم تثير فيه عواصف الفتن
من كل ذى لوثة وذى نزق يخيط للشعب أسود الكفن

(٣)

والذين يعرفون الشاعر — يشهدون أنه كثير القراءة ، واسع الرواية من شعر الفحول فى شتى العصور ، ولكن الذين تبدوا لنا آثارهم جلية فى فنه ليسوا كثيرا . وهذا معقول ؛ فالانسان لا يتأثر كل من يقرؤه ، أو يروى له ولكن يتأثر منهم أشبههم به ، وأحبهم إليه ، وأكثرهم مجاوبة له ، وأوفرهم نصيبا من إعجابه ، كدأبه مع أساتذته ، وكل من يمكن أن يكون لهم فيه تأثير . وهو لا يتأثر هؤلاء على درجة واحدة ، بل على درجات متفاوتات .

وعندى أن أشد الشعراء اتصالا بالأستاذ الشاعر ، وأظهرهم عملا فى نفسه هم : شوقى ، والمتنبى ، والبحترى ، وأبو تمام ، والبهاء زهير ، فلكل منهم فى فنه سمة بادية تدل عليه ، وتذكر به . فأنت تذكر شوقى أو تراه فى شعر الأخلاق ، إذ تقرأ لعلى الجندى قصيدتيه : « أزمة الأخلاق » ، ومصاصو الدماء » ، وما يماثلهما . وتذكره أو تراه فى ختامى « ذكرى المولد » ، (ونهج البردة) ، إذ تقرأ لشاعرنا هذه الأبيات يختم بها قصيدة (فلق الصباح) :

يا خير مبعوث لأفضل أمة عطفا على الاسلام فى أرزائه
أنت الغياث إذا الخطوب تداءبت وافتنت الاحداث فى إيذائه
هذى شعوبك تحت ظل هلالها غرباء أضياف على غربائه

متخاذلون فكل شعب سادر في لهوه مفض على أقذائه
فقد البطولة وهى أنفس إرثه فرجاله فى الروع دون نسائه
فاشفع بجاهك عند ربك إنه أعطاك ما أرضاك من نعمائه

وأنت تذكر المتنبي حين تمر من شعر صاحبنا بهذه الحكم والأمثال المنبثة فى شعره ، على توال حينا ، وافتراق حينا آخر . وتعد قصيدتاه (تحية الثورة العربية) ، (وبطل حطين) . من أحفل شعره بذلك . وأدله على ملكته فيه وتذكر البحترى بهـــذه الديباجة المشرقة تتراءى لك أينما قرأت . وتذكر أبا تمام بهذه القوا فى المتمكنة ، تراها جهرة ، أو تلمحها مطوية فى مطالع الأبيات أو فى أثنائها ، فتمضى إليها ، وأنت عالم بها . فما تحس إذ تباغها مفاجأة منها ، أو إنكارا لها . لأن الطريق إليها قاصدة ممهدة ، حتى لقد تنحدر إليها إنحدارا فما تشعر إلا وقد بلغتها بغير محاولة ولا إعمال رأى . وهو ما يسمى فى البديع بالتوشيح والارصاد . خذ مثلا قوله من قصيدة (أبو الأشبال):

ساسة ورثوا طباع الأفاعى ملمسا ناعما ، ونابا حديدا
كبلوا النيل بالقيود فثار النـ يل فى وجههم يفض القيود
وأبوا غير أن نكون عبيدا فأبى الله أن نكون عبيـدا

وتذكر البهاء زهيرا فى خفةموسيقاه ، وعذوبة روحه . وحلاوة منطقه ، ورقة لفظه ، وظهور خصائص النفس المصرية فيه ، إذ تقرأ مثل قوله من قصيدة دلال الحسان :

قالوا : حبيبك قاس فقلت : صفو الزلال
وهجـــره لك مر فقلت . لكن حلا لى
وفيـــه زهو وتيـــه فقلت . لست أبالى
وعدت والوعد دين على كريم الخلال
إن كان وعدك حقا ففيم فرط الدلال
يا حلو رفقا بقلبي يا حلو رفقا بحالى

وفى قصيدة أيقظ النيام يأخذ مأخذ الجاهليين ومن إليهم فى الاستطراد البعيد، يمضى إليه الشاعر من موضوعه الأصيل ؛ فيمعن فيه ، ويستكثر منه، حتى كأنه موضوع قائم بنفسه ، كاستطراد امرىء القيس من وصف الفرس إلى وصف العقاب فى قصيدة . ألا عم صباحا أيها الطلل البالى ، واستطراد لبيد من وصف الناقة إلى وصف الأتان فى معلقته ، وأبى ذؤيب الهذلى من الرثاء إلى وصف حمار الوحش فى مرثيته . أمن المنون وريبها تتوجع . قال الاستاذ على الجندى .

ورعى منك للعروبة حصنا عز كالأبلق المنيع وطالا
يحسر النجم عن شماريخه الشم وتهفو به البروق عجالا
هازىء بالرياح ترغو حواليـ ـه وهل تزحم الرياح الجبالا

مدرسته

كان للأدب فى مصر مدرستان . سلفية محافظة . وعصرية مجددة. وكثيرا ما كان ينشب بين المدرستين خلاف ، ويثور جدال ؛ فكلتاهما تؤمن بمذهبها وتتعصب له ، وتنكر مذهب الأخرى ، وتتعصب عليه ، ولا سبيل مع هذا وذاك إلى تجنب الخصومة ، واتقاء النزاع . وكانت تنبت فى الفينة بعد الفينة ، وعلى حواشى المدرسة العصرية نزعات غالية ، أو دعوات جامحة ، لا تبلغ مبلغ النظريات المدروسة ، أو المذاهب الراسخة . ثم تقاربت المدرستان ، وتقارضتا بعض الخصائص والمزايا ، فإذا جدة رشيدة متزنة ، ارتضاها الناس ، ومضوا على سننها مجمعين ، لا يكاد يفرق بينهم إلا دواعى الطباع والملكات .

على أن الفوارق بين المدرستين كانت تبدو فى النثر أبعد مدى ، وأشد وضوحا . ولهذا نرى نثر اليوم غير نثر الأمس فى العبارة ، وطريقة التناول وأسلوب العرض ، وفى كل مقوم وصفة من مقومات النثر وصفاته . ولو أنك رجعت إلى رجل من رجال الجيل الماضى ، الذين أدركوا المذهب الجديد

وتأثروا به ، فعرضت قديما من آثاره وحديثا — لبدا لك الفرق بينهما كالفرق بين آثار رجلين يختلفان مادة وفكرا ، كما يختلفان شخصية ومذهبا .

وسواء أكان مرد ذلك إلى المدرسة الجديدة وحدها ، هي صاحبته والعاملة عليه ، أم كان ثمة عوامل أخرى ، شاركتها فيه ، وأعانتها عليه — لانزاع أن النثر قد تحول ، وانتقل من طور إلى طور . أما الشعر فأمره مختلف جدا . والفوارق بين قديمه وحديثه أقل وضوحا ، وأقرب مدى ، حتى لتوشك أن تكون فى جملتها أدنى إلى فوارق الشخصية منها إلى فوارق المدرسة

وليس فى هذا غرابة ولا بدع ، فالنثر أداة التعبير العامة ، يصطنعها الكاتب والشاعر والعالم ، وعليه المعول فى مطالب التعبير جميعا ، فهو أكثر تداولا ، وأعم استعمالا ، وأضخم آثارا ، ولا كذلك الشعر ، فهو أداة الشعراء وحدهم فى التعبير عن عواطفهم ، وتصوير الحياة كما تتمثل لهم . فطبيعى أن يكون حظ النثر من التغير أكبر ، وأن تكون الفوارق بين قديمه وحديثه أكثر . وحق لا مراء فيه أن نقسم النثر من أجل ذلك إلى قديم وحديث ، وأن نعد الأول نتاج مدرسة قديمة ، والآخر نتاج مدرسة حديثة .

أما الشعر فيبدو أن هذا التقسيم بالإضافة إليه لايخلو من إسراف ، ولو بالقياس إلى النثر على وجه الخصوص . ولعل مما هون هذه المبالغة ، وصرف الأنظار عنها أن الشعر والنثر صنوان ، يوشك التلازم بينهما أن يكون متصلا ويوشك الحديث عن أحدهما والحكم عليه أن يمتدا إلى الآخر ، ويعتبرا حديثاً عنه وحكما عليه أيضا . ولو أننا رجعنا إلى شعرى المدرستين ، ندرسهما ، ونتعرف الفوارق بينهما ، والحدود القائمة على أحفتهما — لم نجد من هذه وتلك مثل مانجد منهما حين نرجع إلى نثريهما لمثل هذه الغاية نفسها . فالسمات الكبرى متقاربة ، والخصائص العامة لايبدو بينها خلاف كبير .

وقد سمعت كثيرا من الشعراء والأدباء يتساءلون عما يعنيه المتصدرون للتجديد فى الشعر بالمدرسة العصرية ، والشعر العصرى ، ويودون لو عرفوا على التحديد الدقيق ، والبيان الجلى مبلغ الفرق بينهم وبين من يطيب لهم أن

يسموهم شعراء المحافظة والتقليد . وما أراهم فى هذا التساؤل ولا فى هذه الحيرة بمتجاهلين ولا متعنتين فالأمر فى الواقع على مايجدون ، يحتاج إلى تفسير مبين ، وتحديد لالبس معه .

وكل ماهنالك مما يفهم فهما ، ويكون له فى الخلاف شأن كبير هو العبارة ، وموقف الشعراء منها ، ونظرهم إليها . فمنهم معنى بها ، متشدد فيها ، يحرص ماوسعه الحرص ، وواتته الطاقة أن تكون موصولة النسب بالعبارة الكريمة فى أزهى عصور البيان . ومنهم متسهل ، متسامح ، لايجعل العبارة همه ، ولا يعيبه أن تكون شائعة متداوله ، من أعم مايقول الناس ، ويديرون فى شتى أفانين الكلام .

فتميز الأولون لذلك فى شعرهم بظواهر ثلاث ، يأخذ بعضها بحجز بعض .

الأولى ، أنهم جعلوا للشعر لغة خاصة ، قصروها عليه ، والتزموها فيه ، أوكادوا . وأعم ماتعرف به هذه اللغة التصون والأصالة . فما كل كلمة صحيحة تقبل فيها ، ولا كل عبارة سليمة تصلح لها .

والثانية ، أن عبارتهم إما أنيقة مترفة ، أو جليلة مهيبة ، أما موسيقاهم فهى دائما عذبة النغم حلوة الوقع ، تكاد فى أكثر الأحيان تصرف عن المعنى وما ينطوى عليه .

والثالثة ، أنهم فى سبيل الحفاظ على هذا الطراز من اللغة قد يستعيرون أشتاتا من القوالب اللفظية المأثورة ، لاتحسن التعبير عن إحساسهم ، أولاتحسن تصوير الحياة التى يعيشون فيها . وهذا بلا ريب تلفيق فى التعبير والتصوير . وإنما يراد من الشاعر أن يكون فيهما صادقا ، يبين عن نفسه ، ويعرض الحياة من وجهة نظره ، وكما تتراءى له .

وفى الحفل الذى أقيم لتكريم الشاعر خليل مطران فى العام الماضى كرر الخطباء هذا الفرق بين الشعرين ، وأكدوه ، وجعلوا إليه الفصل بين المجددين يقودهم خليل مطران ، والمقلدين يقودهم أمير الشعراء رحمه الله .

وعندى أن خطب الخلاف فى العبارة ليس بذى خطر كبير . فالعبارة

ليست كل شيء فى الشعر ، ولا هى عنصره الأهم ، وإذا لم يكن بدمن المفاصلة بين نوعيها المذكورين فالفضل فيما أرى للمتصون الأصيل . صحيح أنه قد يغرى بالتلفيق الذى ذكرنا آنفا ، ولكن هيهات أن يزرى هذا العيب بها ، أو يوارى من جميع محاسنها ، فهو ليس مطرداً ، ولا كثيرا ، بل لاسبيل إلى اطراده والاستكثار منه لمن يريده عمدا وقصدا . فالقوالب القديمة لا يمكن أن تسعف فى كل حال ، ولا أن تصلح لكل معنى يراد . وإذا كان هذا النوع من العبارة يغرى بالتلفيق . فان نوعها الآخر لينقصه الكثير من جمال الديباجة ورنين الموسيقا .

ولهذا لاندرى كيف يحاول المتسهلون فى العبارة أن يفرضوا على الآخرين طريقتهم ، ويجعلوها هى العليا ، ويجعلوا طريقة الآخرين هى السفلى ؟ ألا يرون أن فى هذا عدوانا على حرية الآخرين ، وإنكارا لشخصيتهم ، وتعاليا عليهم بلا حق ولا برهان ؟ وماذا بعد أن يتخذ امرؤ من نفسه مثلا يضربه للناس ، ويدعوهم إلى تقليده والاقتداء به ؟ بل ماذا بعد أن يضع شاعر نفسه بموضع الحكم بين الشعراء ، لا ليقضى فيهم بقانون متعالم ، يطبق قواعده ، وينزل على أحكامه ، ولكن ليحملهم على أن يكونوا صورا منه ، أو ظلالا له ، ليس لها خصائص ذاتية ، ولا سمات متميزة ، على حين ينقم منهم أشد نقمة وأعنفها أن يحاكوا أئمة البيان ، وأساطين البلاغة ، بين من عرفت الدنيا ، وشهد التاريخ ؟ .

إن الناس يختلفون فى الثقافة كما يختلفون فى الملكات والأذواق . فكيف يرجى أن يجتمعوا على نمط من العبارة معين؟ وما خير أن يكون هذا الاجتماع؟ إن الخير على ما أرى أن يختلف نتاج الشعراء من الشعر ، كما يختلف نتاج غيرهم من غيره . فيكون للناس من الشعر متاع كثير ، وطعوم منوعة ترضى أذواقهم ، وتثير رغبتهم ، كما يكون لهم من غيره وسائل شتى تسد الحاجة ، وتيسر الحياة .

علينا إذا أن نخلى بين كل شاعر وطريقته ، يحتفظ بها إن شاء ، و يغير

منها إن شاء . لا نقيده بشيء ، ولا نكرهه على شيء . ثم ننظر فيما يخرج لنا من شعر . فنقيسه من كل جانب بمقياس الاستقامه والصدق وندع الزمن والرأى العام الأدبي يقضيان فيه ، فقضاؤهما عدل لاهوى معه. وحسم لامرد له . وليس أقدر منهما على نفى الغثاء ، والتمكين فى الحياة لما ينفع الناس .

لقد حاول كثير أن يهدموا شوقى . ويزيفوا شعره . فقالوا فيه ماقالوا ، وعزوا إليه من العيوب والنقائص ماعزوا . فاستمع لهم من استمع ،وأعرض عنهم من أعرض ، ثم مضى شوقى إلى ربه ، وخلفهم وراءه يشهدون بأعينهم عواقب الحرب التى شنوها عليه . حتى إذا سكتت الضجة ، وسكن الغبار - أخذت الحقيقة الخالدة تتجلى وتزداد على الأيام تجليا . فإذا شوقى فى موته أبعد صوتا . وأجل قدرا من شوقى فى حياته ، وإذا شعره بعد عصره يصلح للرواية والغناء ماصلح لهما فى عصره أو يزيد .

وأصبح خصومه بالأمس على مارى الناس . منهم صريع منصف يعترف له بالفضل والمزية . فيحمده الناس ويكبرون صنيعه . ومنهم ماكر كتوم . يصطنع الدهاء ، ويروغ من الحقيقة . فلا يقول الناس عنه شيئا ، ولكنهم يسمون منه بسمة تغنى عن كل مقال . ومنهم مكابر مصر ، يكرر ماعرف عنه . ويعيد ما بدأ به . فيعرض الناس عنه ولا يسمع له منهم سميع .

إن بعض الناس يتهمون الذين لايلقون إلى العبارة بالا ، ولايقيمون لها وزنا بضعف الأداة . وقلة الثروة من اللغة ، ويزعمون أنهم بانتحال التجديد على هذا النحو إنما يحاولون أن يواروا فيهم هذا النقص ، بل أن يجعلوه منقبة ويخلقوا منه مذهبا يعتزون به ، ويدعون إليه ، ويستبيحون فى حماه أن يسموا من لايجاريهم فيه ، ويتابعهم عليه بالمحافظة والتقليد ، بل الجمود والتخلف . ونحن لانود أن نوافق على هذا الاتهام . ولا أن نصدق هذا الزعم ، ونعده مجرد رجم بالغيب ، زينه لهم اختلاف الرأى وسوء الظن . وليس يسعنا مع ذلك إلا أن نعجب ونتساءل . كيف نجرى على التخصص فى غير لغة الشعر ،

فنجعل للكتابة الفنية لغة . والكتابة التقريرية لغة . والكتابة الديوانية لغة، وللخطابة لغة . بل كيف نجرى على التخصص فى كثير من أمور الحياة ، ثم لانرتضى أن تكون للشعر لغة تناسب جماله . وتعين على التأثير به ؟ وكيف لانتحرج أن نعيب موسيقا اللفظ . وإن كان صاحبها لايتكلفها ، ولا يتعب فيها ، ونحمد خلافها . وإن كانت لتغض من جمال الشعر . وتعرضه معرض الصورة الجميلة فى الإطار المهين ؟ بل كيف لانتحرج أن نمعن فى التجنى والاعتساف فنسوم صاحب موسيقا اللفظ وإن كان أمره على ما وصفنا ـ أن يدع موسيقاه . وينزل عن طبقته . ليأخذ إخذ من هم دونه رشاقة لفظ ورنين موسيقا . ولا نسوم هؤلاء أن يدعوا تسمحهم . ويسموا بعباراتهم إلى طبقة أولئك . ويأخذوا على سننهم من الأناقة والتحرز ؟

لقد أطلت الكلام فى هذه المرحلة . بما يشبه أن يكون استطرادا منها ، أو عدولا عنها . ولم يكن من ذلك بد عن مايبدو فأنا أذهب إلى أنه لاجديد فى الشعر ولا قديم على نحو مافى النثر . وما أستطيع أن أقول ذلك اقتضابا ، أو أرسل الرأى فيه كما ترسل الحقيقة المقررة . وإذا لاعلى ألا أنسب على الجندى إلى المدرسة السلفية . ولا إلى المدرسة العصرية . فما هو منهما . ولا هما من الواقع فى شىء . ولكن الذى لامعدى لى عنه أن أقول إنه من أصحاب الموسيقا اللفظية . بما يجتمع فى عباراته من طلاوة اللفظ ، وحلاوة الإيقاع .

وإنه بهذا ليمثل ثقافته ، ويدل على مدرسته ، أى المعهد الذى نهل منه ، وتخرج فيه . فعلى الجندى من شعراء دار العلوم . الذين يتبدى فيهم أدب دار العلوم أصدق مايكون . عربية قويمة منتخلة . لايميل بها عوج . ولايشوبها شوب من دخل ، شريفة مصونة . لاتجارى السوق . ولا تصانع الدهماء . ولكنها تعلمها . وتغريها بالصعود إليها . على أنها لاتتجاهل العصر . ولا تغفل الأخذ بكل جديد . فيه خير وصلاح .

ملاحظات

ملاحظاتى على شعر صديقى على الجندى لاتعدو أن تكون فى جملتها من النوع الذى تتعدد فيه الآراء، وتختلف وجهات النظر وأنا إذ أسميها ملاحظات وأطلق عليها هذا الاسم دون تحفظ ولا تقييد، فإنما أعنى أنها كذلك فى رأيى ومن وجهة نظرى، ليس غير، لأنى لا أعلم رأى غيرى فيها ما يكون ؟

وأول مانعرض له منها أن عبارة الشاعر لاتخلو أحيانا من القوالب اللفظية ينقلها إليها اختيارا وقصدا، لأنسة بها واستراحته اليها، أو تسبق هى إليه، فيخدع عنها، ولا يتنبه إليها، من طول ما كررها، وكثرة مارآها، حتى امتزجت بنفسه، ونزلت منه منزلة ماهو من تأليفه وصنعه. ولا أرى أن عليه من هذا بأسا، ولا أنه مستحق به لوما، لو أن هذه القوالب كانت مما يمثل شخصيته، ويتفق مع المعتاد من طبعه وذوقه، قال من قصيدة «وديعة القطار».

خطرت كالغزال فاهتز أعلا ها وماجت من تحتها الكثبان

فهذا التصوير الجسدى المثير – لا نراه يتفق من المعروف من حياء الشاعر، وصحة فهمه وذوقه، ولا مع مطالب العرف من الغزل، واتجاه الشعراء به فى العهد الأخير على التخصيص. فقد مللنا المادية، وضقنا بها فى كل شىء، ولا سيما بعد ما تمخضت عنه، وانتهت إليه خلال الحرب الأخيرة وفى أعقابها من شرور ومفاسد وآثام. وأصبحنا نود مخلصين لو تنزهت حياتنا وبخاصة الفنية عن كثافتها، وخلصت من أدرانها إلى الروحية فى براءة بواعثها، وسمو منازعها، وصفاء آفاقها. وقد أصبح الغزل فى مثله الرفيع عاطفة أكثر منه وصفا، ومعنى أحب منه جسما. وهو حين يتعاطى الوصف لا ينظر إلى الجسم، وإن يتكلف النظر إليه فعلى استحياء وفى غير إفاضة ولا استقصاء، حتى ما يكاد يعدو به الوجه وبعض ما فيه، أو يتصل به من قريب وإنه على كل حال ليتحرج من الكشف والتصريح.

وما كان لهذا البيت أن ينفذ إلى شعر على الجدى ؛ فبعد منه . ويحسب عنيه لولا أن القوالب التي جاءت فيه خدعته ، أو استبدت به ، فلم يملك نقده ولا رده . ومن عجب أن يعود إلى هذه القوالب نفسها بالتكرار فى قوله من قصيدة (عبث الغيد) :

وهو إن ماس خشيت الـ ـمتن أن يصرع خصره

وقوله من قصيدة (اللقاء الأول) :

وذراعى بين غصن يتثنى وكثيب

نستطيع إذاً أن نقول . إن الشاعر فى هذه الأبيات وأمثالها قد عصى ذوقه وطبعه ، وأطاع حفظه وروايته ، فلم يعبر عن شخصه، ولكن عن سواه

ولعل مما يهون هذه الملاحظة أن شعر الغزل فى الديوان مما نظمه الشاعر فى مطالع شبابه ، وأنه مع ذلك حين كان يحتكم فيه إلى ذوقه ، ويرجع إلى طبعه يبدو على العهد به من سمو العاطفة ، وروحانية الحب ، استمع إلى قوله من قصيدة (طيف خيالها) .

فلله درى حين أغضى مهابة لرب جمال زارنى وجلال
لبست له برد الخشوع كأننى أقيم صلاتى والحطيم حيالى
سوى قبلة من كفه خلت وقعها على قلبى الحران برد زلال

وقصيدة (بطل حطين) لا نراها كافية فى موضوعها ، ولا سيما إذا قرناها إلى قصيدة (أيقظ النيام) ، فهما من ناحية الموضوع على اتصال كتاهما فى شخصية لها عند الشاعر حظ من إعجاب . لكنه فى الأولى مقل ، وفى الأخرى مكثر ، ولو شاء لكان مجال القول فى الأولى مثله فى الأخرى بل لكان أوسع مجالا ، وأشد داعية إلى الافتنان . وقد يكون مرجع ذلك إلى واحدة من اثنتين أو إلى الاثنتين معاً .

(١) أن القصيدة هدية الشاعر إلى صديق ، وليست تصوره للبطل ، فهو يتجه فيها إلى الصديق أكثر مما يتجه إلى البطل ، ولا يريد بها أن تكون صورة لهذا بقدر ما يريد أن تكون تذكارا لذاك .

(٢) وأن عنوانها (بطل حطين) وليس صلاح الدين . فكأنه أراد أن يتقيد بالموضوع . فما يضيف إليه . ولا يتوسع فيه إلا بقدر معلوم .

(٢) وقد سمى الرسول عليه السلام بالحبيب مرتين فى قصيـــدة (فلق الصباح) . فقال :

وتغن فى وصـف الحبيب فانه لحن يساورنا الهوى بغنـائه

وقال :

وأشرب على عطر الحبيب وطيبه مترنحا فعـل الطروب التائه

واللفظة فى نفسها سائغة عذبة . لـكنها تبدو فى هذا المقام أقرب إلى العامية . وأشبه بها . لـكثرة ما تدور فى مقاولات العامةوأحاديثهم . من مثل (صل على الحبيب . وضرب الحبيب كأكل الزبيب) .

وقد استعاض منها الشاعر بكلمة (البشير) فى قوله من قصيدة (هجرة الحق والإيمان) إذ يقول :

هات حدث عن البشير وأطنب فحبيب إلى الورى ما تقـول

وهى فيما أجد أحلى مساغا ، وأفضل موقعا من الحبيب . ولئن تـكن كلمتا (تغن ، واشرب) فى بيتى « فلق الصباح » تمهدان لـكلمة الحبيب فيهما ـ إن ذلك لا يجدى عليها ، ولا يرفع من نسبها . على أن كلتا الـكلمتين إذ ترحب بها لا تضيق بكلمة البشير ولا تـنكرها .

٤ ــ وما أراه يحسن خطاب حبيبه ، ولا يبغى له خيرا ، إذ يطلب إليه أن يطفىء جمر خده ، وينزع الدر من ثغره فى قوله من قصيدة « لا تلومى فى حبك » :

أطفئى جمرا بخـــديك له فى فؤاد الصب وقد وصلاء

وانزعى الدر من الثغر الذى هو للعشـــاق داء ودواء

فما يطفأ جمر الخد ، وينزع در الثغر على الشباب ، أو الصحة ، أو الحياة .

٥ ــ وفى قصيدة « معاهدة غير ذات موضوع » يقول عن الإنجليز فيما يقول :

عهد كعهد الغانيات وهل وفت للمستهام بها الحسان الحور

وأرى أن المقام أخطر من أن يقبل هذا اللين ، وأبعد من أن يخطر بالبال أمثال هذه المعانى الغزلة اللاهية . فأين التجبر ، والهضيمة ، والعدوان تنزله أمة طاغية قاهرة بأمة صغيرة ناشئة على ماقدمت لها من خير، واحتملت فى سبيلها من أذى وتضحية - أين هذا كله من خلف الحسان أو وفائهن ؟

٦ - وهو يكرر إدخال ها التنبيه على الضمير المنفصل ، الذى ليس مخبرا عنه باسم إشارة ، فيقول فى قصيدة « أبو الأشبال » :

ها هو اليوم بعد خمسين عاما   ينثر الحب فى ثراك ورودا

ويقول فى قصيدة (النفخ فى الصور) :

هم خدعونا بالوعود وها هم   لكم أظهروا ما أبطنوه من الغدر

ويقول فى قصيدة (عند ما يثور الكريم) :

وقد عشت دهرا كابن ورقاء وادعا   وهأنا فى بردى يكمن ضيغم

ويحكم النحاة بشذوذ أمثال هذه التراكيب : .

٧ - واضطر إلى الإقواء فى قصيدة « جنون الشعر » إذ يقول :

ادفنونى حيا فقد جف ينبو   عى ومات الهوى وخاب الرجاء

لا أريد الحياة ليست حياتى   بعد فقد الحبيب إلا هباء

وليس بعيدا أن تكون كلمة الهباء مرفوعة وأن يكون الشاعر قد جرى فى رفعها على لغة تميم فى مثل قولهم . ليس الطيب إلا المسك .

٨ - وبعض القوافى لا تطلبه جيرته ، ولا تفسح له حين يساق إليها ، ولكنه نادر جدا ، كقوله عن دار الزعيم سعد زغلول ، من قصيدة « عسف السلطة العسكرية » .

واستلم ركنها وطف بذراها   والثم الترب واسع سعى الكرام

وما كان لمثل هذه الملاحظات أن تنال من هذا الديوان الممتع منالا ، أو أن تغير الرأى فيه شيئا . فالى الصديق الكريم تهنئة خالصة بإخراجه ، وثناء جميل على الإحسان فيه . ورجاء أن يجعل منه الجزء الأول ، تعززه أجزاء متداركة ، تستوعب شعره كله إن شاء الله تعالى

على النجدى ناصف

كنايات واضحة غامضة

للأستاذ على السباعى

الأستاذ بكلية دار العلوم

للعرب فى جاهليتهم كنايات أغرم بها الأدباء فاتخذوها أساليب موروثة يزينون بها أدبهم ويزخرفون منها حديثهم ويستعملونها فيما قصد إليه السلف من التلطف فى الحديث والتأدب فى المشافهة والمواجهة وهى واضحة غامضة أما وضوحها فيظهر فى معرفة الشداة من المتأدبين المراد منها فى غير تردد ولا تمكث وأما غموضها فناشىء من التوقف فى معرفة أصلها إذ لا يعلم أصولها ويقف على دقائقها إلا الراسخون فى اللغة المتمكنون من آدابها ونكتب لأولئك الشداة الذين مرت بهم هذه الكنايات فعلقوها وروقوا بهم أدبهم غير معنيين بالبحث عن أصلها والكشف عن مكنونها بيانا بالأصل فى بعض هذه الكنايات :

١ — لله دره : كناية عن التعجب من مزية فاق بها المتعجب منه غيره .

وتوضيحها الدر اللبن وهو أفضل المشروبات عند العرب ومن أكمل الأطعمة وأحسنها عند علماء التغذية وقد امتن الله به على عباده وجعل استخلاصه من بطون الأنعام عظة وعبرة ووصفه بأنه سائغ للشاربين فلا يشرق شاربه أو يغص به فقال (وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين)[1] .

وقال ابن الأعرابى : الدر العملُ من خير أوشر وهذا تفسير بالاستجازة وأصل هذ المثل أن رجلا رأى آخر يحلب إبلا فتعجب

(١) ذكر الضمير فى بطونه مراعاة للجنس أو لأن جمع الكثير فيما لا يعقل يعامل معاملة لفظ الجمع أو لأن المراد : المذكور أو لأن المراد البعض لأن من الأنعام ما لا لبن له كالذكور .

من كثرة لبنها فقال لله درك فالجملة خبرية يراد بها التعجب ومثلها ، لله أبوك ، ولله أنت ومن هذا النمط قول سيدنا على كرم الله وجهه يمدح سيدنا عمر رضى الله عنه (لله بلاد فلان : قوم الأود ، وداوى العمد ، خلف الفتنة وأقام السنة [١] فكان القائل حين يعجبه إنسان فى العلم أو الفروسية مثلا يقول لست يافلان فى هذا الذى يتعجب منه منسوبا إلى معلمك أو أبيك وإنما نسبت إلى الله من بين العلماء والفوارس تمجيدا لما نلت وتعظيما لقدرك وشرفك وكأن البلاد التى اشتهر أمرها بين الناس منسوبة لمن هندسها وخططها وأقامها إلا بلاد عمر فإن الذى سواها ورفع سمكها هو الله جل صنعه وعز شأنه ودر فى مثل هذا التركيب تضاف إلى ضمير المتكلم كقول ابن أحمر :

بان الشباب وأفنى ريعه العمر لله درى فأى العيش أنتظر

أو إلى ضمير المخاطب كقول الجموح الظفرى :

قالت أمامة لما جئت زائرها هلا رميت ببعض الأسهم السود

لله درك أنى قد رميتهم لولا حددت ولا عذرى لمحدود [٢]

أو إلى ضمير الغائب كقول النابغة أو لبيد :

كم شامت بى إن هلكـ ت وقائل لله دره

أو إلى الظاهر كقول سيدنا حسان رضى الله عنه :

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق فى الزمان الأول

وقد يأتى التركيب بغير لفظ الجلالة فيقال فى الدعاء له : در دره وفى الدعاء عليه : لادر دره

٢ - رمى الكلام على عواهنه : كناية عن التخليط بين الحسن والقبيح والصواب والخطأ :

وتوضيحها : العاهن أو العاهنة وجمعه عواهن السعفة التى تلى القلب فاذا

(١) الاود : العوج ، العمد : المرض ، خلف الفتنة : لا أدركها ولا أدركته

(٢) الاسهم السود كناية عن الاسطر المكتوبة أى هلا كتبت الى كتابا ، عذرى : معذرة حددت : منعت

يبست تعلقت ولم ينتفع بها لأنها لاتحمل عذقاً أو كباسة (١) ولا تمد القلب حينئذ بقوة تساعده على النمو والإثمار ولذلك قال عمر رضى الله عنه (ايتنى بجريدة واتق العواهن) أمرهما على قرب الحلة أن يصره قطع ماقرب منه وعلى فى المثل بمعنى مع فالمراد ألقى الكلام حال كونه مع مالا ينتفع به ولا يفيد شيئاً .

وقد فسر الخليل ألقى الكلام على عواهنه بقوله : لم يتدبره ، أو قال غير مبال أصاب أم أخطأ ، أو قاله بقبيحه وحسنه والمعنى فى كل هذا التفسير قريب من قريب .

وفسره على بن سيده فقال : حقيقته أنه قال ما ألم به وحضره مأخوذ من العاهن بمعنى الحاضر يقال أخذ من عاهن ماله وآهنه أى من حاضره وتالده والمراد من لفظ حقيقة معناه لا المقابلة للمجاز .

وفسر ابن الأثير العواهن فقال أن تأخذ غير الطريق أو الكلام وقيل هو من قولك عهن له كذا أى عجل ومعنى المثل حينئذ أرسل الكلام على ماحضر منه وعجل من خطأ وصواب .

وفى الأثر : إن السلف كانوا يرسلون الكلمة على عواهنها أى لايزمونها ولايخطمونها وتفسير خطم الكلمة واضح فى قول شداد بن أوس (ماتكلمت بكلمة إلا وأنا أخطمها أى أربطها وأشدها) يريد الاحتراز فيما يقوله والاحتياط فيما يتكلفه فالزم والخطم المأخوذان من يزم ويخطم فى الأثر المراد بهما منع الكلمة من الشرود والخروج على المألوف كما يمنع الزمام والخطام الدابة من الشراد والجماح عن الجادة .

ومما سبق من التفسيرات المتفقة معنى وفحوى تتضح الكناية التى نستعملها كثيرا فى مجالس القضاء أو الجدل السياسى أو الاجتماعى بل نكررها فى الحديث المعتاد ونقول لمن يخلط فى كلامه أو لمن يلقيه من غير تدبر أو تفكير

(١) السعفة من النخل بمنزلة الغصن من الشجر، ولا يقال لها جريدة إلا إذا نزع خوصها القلب شحمة النخلة وهو الجمار وسمى قلبا لبياضه ، الكباسة بمنزلة العنقود من الكرم

أو لمن لاحجة له تنهض بصدق حديثه وصحة قوله « يلقى الكلام على عواهنه » .

أما من يتدبر ويفكر ويسمع قوله صادقا فى حواشيه صوابا فى أغراضه ومراميه فيقال له « فلان ممن لايلقى الكلام على عواهنه » أى أنه صادق ثبت وحجة ثقة لاتشوب كلامه شائبة من الخلط والخطأ .

٣ ـ هو أعلى كعباً : كناية عن السيادة والشرف والفوق فى المزايا .

توضيحها : الكعب العظم الناتىء فوق القدم وأسفله العقب وقد يسمى الناس العقب كعبا استجازة لعلاقة المجاورة ولكل قدم كعبان عن يمنتها ويسرتها . والكعب من القصب أو الرماح عقدة مابين الأنبوبتين وقيل هو الأنبوب بين كل عقدتين والمعنى الأول أظهر وأوجه لاتفاقه مع كعب القدم فى النتوء والنشز ، والكعب فص النرد الذى يلعب به وجمعه كعوب وكعاب وأكعب ، والكعب الحد والشرف فيقال فى الدعاء أعلى الله كعبك أى أعلى الله شرفك وليس الكعب فى الكناية مرادا به كعب القدم أوالنرد لأن علو الكعب الحلقى عيب ينبز به صاحبه ويعير ولا معنى لعلو الكعب فى النرد فالمراد كعب القناة والرمح وكما نصطنى الآن أفره حصان ، أو أحدث سيارة ، أو أقطع سيف ، وابعد بندقة مرمى للقائد كان العرب يختارون للدلالة على شرف شيوخهم أو سادتهم الرماح المتباعدة الكعوب اللدنة تعسل متونها وتطرد حتى ليقال لأحدها رمح بكعب واحد إذا كان مستوى الكعوب فليس كعب أغلظ من آخر وفى مثل هذا يقول أوس بن حجر أحد وصاف الأسلحة العربية .

تقاك بكعب واحد وتلذه يداك إذا ماهز بالكف يعسل

ويقول ساعدة بن جؤية الهذلى فى لدونة الرمح واهتزازه واضطرابه ولا يكون كذلك إلا إذا تباعدت كعوبه

لدن بهز الكف يعسل متنه فيه كما عسل الطريق الثعلب

وقد قال العرب فى معنى الكناية السابقة أمثالا أخرى منها ، هو أعلى الناس ذا فوق ، الفوق موضع الوتر من السهم ويكنون بعلوه عن السيادة والشرف أيضا وقد وصف سيدنا على كرم الله وجهه سيدنا أبا بكر رضى الله عنه فقال كنت أخفضهم صوتا وأعلاهم فوقا يعنى أكثرهم حظا ونصيبا من الدين وجاء فى كلام ابن مسعود رضى الله عنه ، إنا أصحاب محمد اجتمعنا فأمرنا عثمان ولم نأل عن خيرنا ذا فوق أى ولينا أعلانا سهما أراد خيرنا وأكملنا فى الاسلام والسابقة والفضل ولم نعن بشرح الكنايات بالسهام عن الشرف لعدم استعمالها أو تردادها فى الحديث ، ولأن السهام اندثر العمل بها فى الأمم المتمدينة ، أما الرماح فلا تزال بأيدى الجيوش فى العصر الحاضر ولا سيما الفرسان منها .

٤ — **هو نسيج وحده** : كناية عن الممدوح لا نظير له فى فضله أو علمه مثلا .

توضيحها : نسيج فعيل بمعنى مفعول ، وحده : منفرد به وأصله أن الثوب ينسج على منوال وحده لا يشركه فى سداه ثوب آخر ، ولا يكون ذلك إلا لرقته ودقته وقد قالوا إن وحده تنصب دائما ولا تكسر إلا فى قولهم هو نسيج وحده فى المدح وعيير وحده وجحيش وحده فى الذم ويرى بعض المعاصرين أن لا مانع من نصبه على الأصل وحينئذ تنون كلمة نسيج ويعرب وحده حالا على الأصل من الضمير فى نسيج وعندى أنه مثل والأمثال كما قالوا لا تغير عما وردت .

قال فى المصباح فى مادة نسج . ويقال فى المدح هو نسيج وحده بالاضافة أى منفرد بخصال محمودة لا يشركه فيها غيره كما أن الثوب النفيس لا ينسج على منواله غيره أى لا يشرك بينه وبين غيره فى السدى وإذا لم يكن نفيسا فقد ينسج هو وغيره على ذلك المنوال .

وقال فى اللسان فى مادة نسج : قالوا فى الرجل المحمود وهو نسيج وحده ومعناه أن الثوب إذا كان كريما لم ينسج على منواله غيره لدقته وإذا لم يكن كريما نفيسا دقيقا عمل على منواله عدة أثواب .

وقال أيضا فى مادة وحد : والعرب تنصب وحده فى الكلام كله لا ترفعه ولا تخفضه إلا فى ثلاثة أحرف : نسيج وحده ، وعيير وحده ، وجحيش وحده ثم قال معنى قوله نسيج وحده : أنه لا ثانى له وأصله الثوب الذى لا يسدى على سداه لرقته غيره من الثياب [1]

وقال أبو هلال العسكرى فى كتابه جمهرة الأمثال يقال : فلان نسيج وحده أى لا نظير له وأصله الثوب النفيس لا ينسج على منواله غيره معه بل ينسج وحده .

يفهم من نصوص المصباح واللسان فى مادة وحد والجمهرة أن الانفراد بعدم الاشتراك فى السدى ، ومعنى ذلك أنا لو جئنا ببقية الخيوط من الثوب الأول المكنى عنه بالتفوق وأنه لا نظير له ونسجناها على منواله بعينه لا يكون شريكا أو مثيلا له وهذا تحكم لا يرضاه المنطق القاضى بتساوى الشيئين المتوافقين فى الصفات والأعراض .

ويفهم من نص اللسان فى مادة نسج أن الانفراد فى المنوال نفسه وهذا ما يقتضيه التفسير بلا ثانى له ولا نظير له والاعتراض بأن فى أفراد الثوب بمنول يستوجب تبذيرا ويسم الصانعين بالخرق مردود بما يشاهد من القوالب الخاصة بالقلانس والأحذية لبعض العيون والوجهاء وبأن التغيير فى المنوال لا يستدعى أكثر من تغيير المشط الذى تسلك فيه خيوط السدى وأمره هين يسير أما باقى أدوات المنوال فلا يعتريها التبديل وحينئذ فلا خرق ولا إسراف فيما يختص به المتأنقون .

وقد جاءت هذه الكناية نثرا فى قول السيدة عائشة رضى الله عنها تصف

---

(١) فى اللسان لرقة غيره من الثياب وهو تحريف صحيح من شرح القاموس وأوحى بعدم استقامة المعنى

سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان أحوذيا نسيج وحده »[١] تعنى أنه ليس له شبيه فى جميع أموره ، وجاءت نثرا فى قول دكين الراجز يمدح عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراق زمن يزيد بن عبد الملك وكان الأمير راكبا بغلة فقال على البديهة :

جاءت به معتجرا ببرده   سفواء تردى بنسيج وحده الخ[٢]

٥ ـ أخذ الشىء برمته : كناية عن أخذ الشىء بجملته فلا يتبقى منه عين ولا أثر .

توضيحها : الرمة بالضم وتكسر الحبل الخلق والرمة بالكسر العظام البالية وجمع رمة رُم ورمم ورمام وأرمام وجمع رمة رمم ورمام ، والرمة الجملة فيقال أعطه الشىء برمته أى جملته كما نقول فى تعبيرنا المعتاد والمكرور أعطه الجمل بما حمل ، وأصل الكناية أن رجلا دفع إلى آخر بعيرا بحبل فى عنقه فقيل أخذ الجمل برمته وصار مثلا لكل من يأخذ الشىء بحذافيره ولا ينقصه شيئا وقد عبر الأعشى عن هذا المعنى فى قوله يراجع الخمار ويصف الخمرة :

فقمنا ولما يصح ديكنا   إلى جونة عند حدادها
فقلت له هـــذه هاتها   بأدماء فى حبل مقتادها

الجونة : الخابية للخمر وجعلها جونة لاسودادها بالقار غالبا ، الحداد . الخمار ، الأدمة إذا وصفت بها الأبل فالمراد بها البياض كالهجانة والمقتاد : القائد والمعنى هات هذه الجونة وخذ هذه الناقة البيضاء بحبل قائدها وهو معنى قريب جدا من أخذ الشىء برمته ونستطرد هنا فنذكر ماقيل عن تلقيب الشاعر

(١) الاحوذى بالذال المشمر الجاد الغالب على أمره وبالزاى الجامع من حاز الشىء يحوزه كأنه جمع الجد والتشمير

(٢) الاعتجار لى الثوب على الرأس من غير ادارة تحت الحنك ، السفواء : الخفيفة الناصية وذلك محبوب فى البغال مكروه فى الخيل ، الردى أو الرديان : سير بين العدو والمشى الشديد

الرجاز غيلان بن عقبة العدوى بذى الرمة : قيل لحبل كان فى عنقه يحمل به تميمة أو تعويذة فلما مر بخباء محبوبته مية وبهره جمالها خرق دلوه عمدا وطلب أن تخرزه له فأبت وقالت إنى خرقاء أى لا أحسن عملا فاستحيا وحمل دلوه وانصرف ثم أشفقت عليه ونادته ياذا الرمة إن كنت أنا خرقاء فان أمنى صناع أى تحسن العمل وتتقنه فجلس وخرزت له دلوه وقيل - ويرجحه مؤرخو الأدب - إنه وصف منزل مية بالوحيد فى شعره والرواية هنا من ديوانه الذى صححه كارليل هنرى هيس لا كما روى البغدادى فى خزانته ولا كما روى اللسان وشارح القاموس فى مادة (رم)

هل تعرف المنزل بالوحيد   قفرا محاه أبدُ الأبيد
والدهر يبلى جدة الجديد   لم يبق غير مثل ركود
على ثلاث باقيات سود   وغير باقى ملعب الوليد
وغير مرضوخ القفا موتود   أشعث باقى رمة التقليد[1]

فكما لقب عائذ بن محصن بالمثقب العبدى لقوله :

ظهرن بكلة وسدلن أخرى   وثقبن الوصاوص للعيون[2]

ولقب شأس بن نهار وهو ابن أخت المثقب بالممزق العبدى لقوله :

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل   وإلا فأدركنى ولمـــا أمزق

ولقب مسلم بن الوليد بصريع الغوانى لقوله :

هل العيش إلا أن تروح مع الصبا   صريع محيا الكأس والأعين النجل

لقب غيلان بذى الرمة لقوله أشعث باقى رمة التقليد والله أعلم بالصواب من الرأيين ؟

على السباعى

---

(١) الوحيد : نقا بالدهناء كما قال السكرى ، مثل جمع ماثل بمعنى منتصب وركود : مقيمات ، يعنى الاثافى ، مرضوخ القفا : يعنى الوتد المشجوج وموتود مدقوق ، باقى رمة التقليد : بقى فى الوتد حبل تقلد فيه الدواب

(٢) الكلة : الحجلة (الناموسية) الوصاوص مفرده وصوص أو وصواص : خرق فى الستر بمقدار العين تنظر منه الجارية .

بحث فى كلمة

حسب

للأستاذ عبد العال امام المدرس بالمدرسة الثانوية الفنية بالجيزة

تأتى حسب على وجهين :

الوجه الأول

أن تكون بمعنى كاف ، اسم فاعل من كفى لا يتعرف بالاضافة [1]

ولها فى اللغة على هذا الوجه استعمالان

الاستعمال الأول

أن تأتى مضافة مستعملة استعمال الصفات المشتقة ، لافتقارها إلى موصوف تجرى عليه .

وتكون حينئذ

(١) نعتا لنكرة . لأنها لم تتعرف بالاضافة ، حملا على ما هى بمعناه ، كمررت برجل حسبك من رجل — أى كاف لك عن غيره — ٥٢ ج ٢ تصريح « ومن رجل » تمييز لحسب . لأنه يجوز دخول « من » على ما كان تمييزا بعد تمام الاسم [2] . نحو إردب من قمح ، ونحو حسبك به من رجل — ٥٢ ج ٢ يس .

---

(١) مثل حسبك فى عدم التعرف بالاضافة : شرعك ، وكافيك ، وناهيك ، وكفيك ، وهدك ، ونحوك ، وإنما لم تتعرف بالاضافة لكونها بمعنى اسم الفاعل لأن معنى حسبك زيد ، يكفيك زيد وكذا أخواته ، ومعنى [illegible] ملك [illegible] ٢٧٦ ج ١ كافية ، لابن [illegible]

(٢) ومعنى تمام الاسم ، أن يكون ذلك الاسم على حال لا يمكن إضافته معها ، كأن كان منونا ، أو متصلا بنون التثنية ، أو نون جمع المذكر السالم ، أو كان مضافا فلا يمكن إضافته مرة ثانية .

(٢) حالا من معرفة ، نحو هذا عبد الله حسبك من رجل — بنصب « حسب » على الحال من عبد الله ، أى كافيا لك من غيره .

و « من رجل » تمييز لحسب كما تقدم — نقله يس عن أبي حيان فى الارتشاف .

الاستعمال الثانى :

أن تأتى مضافة مستعملة استعمال الأسماء الجامدة من مباشرة العوامل اللفظية والمعنوية من غير اعتبار موصوف تجرى عليه — ٥٢ جـ ٢ تصريح

ويرد بأنها وإن باشرتها لمكن يقدر لها موصوفات هى المباشرة فى الحقيقة قاله يس ٥٢ جـ ٢ .

وتكون حينئذ :

(١) مرفوعة على الابتداء ، نحو قوله تعالى « حسبهم جهنم »

فحسبهم مبتدأ ، وسوغ الابتداء به الاختصاص بالاضافة — و « جهنم » خبره

وذلك لأن هذه الأشياء شابهت الفعل إذا تم بفاعله ، فيصير الاسم أيضا عاملا فى التمييز ، لمشابهته الفعل التام بفاعله العامل فى المفعول ، لوقوعه بعد تمام الكلام وقد يكون الاسم فى نفسه تاما لا بشىء آخر ، فينتصب عنه التمييز ، وذلك فى موضعين :

الموضع الأول الضمير المبهم فى نحو نعم رجلا ، وساء مثلا ، و « فيالك من ليل »

وأما الضمير الذى عرف المقصود منه برجوعه إلى سابق معين ، أو بالخطاب لشخص معين — فالتمييز فيه عن النسبة ، نحو جاءنى زيد فيا له رجلا ، ونحو قلت لزيد يالك من شجاع ، بدخول « من » على ما كان تمييزا .

الموضع الثانى — اسم الاشارة ، نحو قوله تعالى « ماذا أراد الله بهذا مثلا » على القول بأنه تمييز لا حال .

والعامل فى التمييز هو الضمير واسم الاشارة ، لتمامهما ومشابهتهما للفعل التام بفاعله — ٢١٨ جـ ١ كافية بتصرف ، دلائل الاعجاز فى خطبة الكتاب

وأما « من » فى التمييز فلبيان الجنس ، قال المرادى فى شرح الألفية : من زائدة فى الكلام الموجب ، ولهذا يعطف على موضع مجرورها بالنصب ، كقول الحطيئة

يا حسنه من قوام ما ومنتقبا ، فمنتقبا معطوف على موضع قوام

وصحح أبو حيان هذا فى الارتشاف — ٢٤٥ جـ ٣ خزانة الادب

ويجوز العكس ، وهو أولى ، لأن جهنم معرفة بالعلمية – والمعنى على الأخبار عن جهنم ، أما حسب فنكرة – ٥٢ ج ٢ تصريح

قال بعض المحققين :

قد يتعين هذا الإعراب ، بدليل « فإن حسبك الله » نقله يس عن الدنوشرى ٥٢ ج ٢ يس ولا يتعين الرفع على الابتداء ، بل يجوز أن يكون على الخبر ، نص على ذلك يس عن الدنوشرى

(٢) منصوبه اسما لإن ، كقوله تعالى « فإن حسبك الله » ، فحسب اسم إن ، ولفظ الجلاله خبر

(٣) مجرورة بالحرف ، نحو بحسبك درهم – فحسب مبتدا ، والباء حرف جر زائد ، ودرهم خبر ولايجوز العكس ، لأن حسب نكرة مختصة بالاضافة ودرهم نكرة غير مختصة – ٥٢ ج ٢ تصريح وبهذا الاستعمال الثانى – يرد على من زعم أنها اسم فعل بمعنى يكفى ، لأن العوامل اللفظية لاتدخل على أسماء الأفعال باتفاق ، ولا العوامل المعنوية على الأصح – ٥٣ ج ٢ تصريح

الوجه الثانى

أن تكون بمنزلة لاغير فى المعنى

وفى هذه الحالة يتجدد لها إشرابها هذا المعنى الجديد ، زائدا على معناها الأصلى ، ويتجدد لها كذلك ملازمتها للوصفية ، أو الحالية ، أو الابتدائية ، وتبنى على الضم تشبيها لها بقبل وبعد فى الغايات – ١٢٠ ج ١ شذور الذهب انظر قبل وبعد فى ٣٦٣ ج ١ معجم الحروف

فمثالها صفة لنكرة : رأيت رجلا حسب

ومثالها حالا لمعرفة : رأيت زيدا حسب

كأنك قلت فيهما حسبى ، أو حسبك ، فأضمرت ذلك ، أى حذفت المضاف إليه لفظا ونويت معناه ، أى نويت معنى الاضافة ، وهى النسبة الجزئية الخاصة بين المضاف والمضاف إليه – ٢٠٩ – ٢١٠ ج ١ همع

ومثالها مبتدا : قبضت عشرة فحسب ـ فحسب مبتدا حذف خبره ـ أى فحسبى ذلك

والمعنى : رأيت رجلا لاغير ، ورأيت زيدا لاغير ، وقبضت عشرة لاغير ودخلت الفاء فيها تزيينا للفظ ، كما تدخل على « قط » كذلك ، فى نحو قبضت عشرة فقط ـ ٥٣ ج ٢ تصريح

وهذه الفاء زائدة لازمة ، كما هى كذلك فى « قط » التى بمعناها عند الأمير ١٣٩ ج ١ ولا يجوز قطعها عن الاضافة رأسا ، أى لفظا ومعنى ، وإعرابها منونة ، بحيث تقول : رأيت زيدا حسبا ، أو فحسبا ، لأنه لم يسمع ٩٣ ج ٣ صبان

في ذمة الله

فقيد دار العلوم

المرحوم الأستاذ عبد الستار سلام

مفتش بالمعارف

للأستاذ محمد توفيق رضا
المدرس بالصناعات الزخرفية



يعز على أن أكتب عن المرحوم الاستاذ محمد عبد الستار سلام كزهر تأرج فترة من الزمن ، فعطر الأجواء بشذاه ، ثم صوح فجأة وبغير سابق إنذار ؛ إذ توفى بذبحة صدرية لم تمهله إلا دقائق ، قضي بعدها في الرابع من نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، وهو ممتلىء نشاطا ، وقوة وآمالا .

وقد نشأ الفقيد رحمه الله بمطوبس مركز فوة من أبوين كريمين في أسرة اشتهرت بالعلم ، والتقوى ، والذكاء ، والتقدير من الأسرات العظيمة المجاورة، التي لها بها صلات ود واحترام كأسرة زغلول وبركات .

وتلقى علومه بمعهد الاسكندرية ، ثم لحق بدار العلوم ، شأن النوابغ الأفذاذ في عهده ، فعرف بالنجابة ، واللباقة ، والظرف ، والتفوق حتى كان أول فرقته في عام التخرج سنة ١٩١٥ .

وظل يرقى فى مناصب التعليم حتى صار مفتشا للتعليم الثانوى وكان فيه مثالا . قوى الشخصية . ذا طابع مستقل . وأسلوب مبتكر لم يسبق به . فقد كان له فى التفتيش فكرة آمن بها ونفذها . إذ كان يراه توجيها ، وتفاهما . وإخاء ... لاسلطانا ، ورياسة ، وإملاء ...

وكان رحمه الله حلو الحديث ، حسن الظن بإخوانه . دائم اللطف والبشاشة طاهر القلب ، صريحا . وفيا ... أحبه كل من عرفه أو اتصل به . وتعلق به أحبابه وأصدقاؤه ، كأنهم أهله وأبناؤه ...

وهذه أبيات فاض بها شعورى . مع اعترافى بعجزى فى القريض وتقصيرى نحو الفقيد . إذ غلبنى الأسى . فملك على بيانى . وأذهل وجدانى ...

رحمه الله رحمة واسعة . وأسكنه فسيح جناته . بما قدم فى دنياه من عمل صالح ، وألهم آله وعارفى فضله الصبر والسلوان .

أرثيك بالدمع السخين الغالى — يا خير مفخرة على الأجيال
يا خير من دى الرسالة ملهما — وغدا بحق مضرب الأمثال
قد كنت أوثر أن تكون مودعى — فسبقتنى والسبق للأبطال
قابلتنى بالأمس هشا باسما — وطلبت أن أنبيك عن أحوالى
ووقفت تسمع منصتا لى معجبا — وتقول يا توفيق أنت ببالى
أسمعنى شعرك فى غنيم ممتعا — أو فى الوكيل إذا أردت مقالى[1]
لهفى عليك وأنت بدر قد هوى — قد كنت فرقد ندوة الأشبال
من للمدارس والمجالس والندى — تنعاك آمال إلى آمال
ما كنت أحسب أن يومك حاضر — حتى شهدت الدار فى أهوال
دار العلوم ثكلت شهما ماجدا — أقضيت حق الضاد للرئبال
صبرا فخطب اليوم خطب عروبة — فالحزن من طنجا إلى بنغال

(١) بين شاعرنا وبين حضرتى الأستاذين محمود غنيم والعوضى الوكيل مداعبات مشهورة.

«سلام» لم أقض الحقوق ولم أكن يوما عن الخل الوفى بسال
غادرت دنيا الغدر فينا عاجلا وذهبت تنعم بالجوار العالى
جاورت ربك تستظل بعرشه وتركت بيتك فى حمى المتعالى
قد كنت فى دنياك برا زاهدا لك فى ذرا الفردوس خير مآل

للمناســـبة والذكرى

رثاء المرحوم الأستاذ عبد الستار سلام

للمرحوم الأستاذ أبى الفتـــح الفقى

« لما فجعت دار العلوم بوفاة المغفور له المرحوم الأستاذ أبى الفتح الفقى بك »
« وكيل دار العلوم سنة ١٩٣٦ بكاه الأستاذ عبد الستار سلام بقصيدة عبر »
« بها عن شعور أبناء دار العلوم بالفجيعة، وترجم عن إحساسهم بوقع المصاب »
« وفداحة الخطب وعظم الرزء .
« وشاء القدر أن تكون هذه القصيدة التى لم يسبق نشرها، من بين ماعثر »
« عليه فى أوراق المرحوم الأستاذ عبد الستار بخط يده بعد أن اختاره »
« الله لجواره فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٤٧ وكأنه يصور إحساس أبناء دار العلوم »
« نحوه وحزنهم عليه وألمهم لفقده . فما أشبه الليلة بالبارحة . رحمهما الله ، »
« وجعل الوفاء دائماً شيمة أبناء دار العلوم »   وهاهى ذى :-

القصيـــدة

أجرى الشئون وأذهل الألبابا	سهم رمته يد القضاء فصابا
أودى بطود للجماعة شامخ	فهوى وكان من الكواكب قابا
شق النعاة بنعيه جوف الدجى	فارتج من هول المصاب وشابا
وتصدع الهرم الكبير وطالما	صدع القرون وطاول الأحقابا

طاحت بقمته الشجون وشدما   كانت تناطح فى السماء سحابا

وبرت أبا الهول المؤرخ هزة   لولا الخلود لصيرته ترابا

قد حطم الحدث المروع رأسه   والوجه شوه والجبين أصابا

والنيل فاض دما وكان رحيقه   يشفى السقام ويبرىء الأوصابا

ومشى الأسى بين المدائن والقرى   يطوى الفضاء ويفجع الأحبابا

يالهف نفسى مذ دوى صوت الردى   ولى أبو الفتح الفقيــه وغابا

ذاب الفؤاد جوى وذابت مهجتى   والقلب أيضا كالحشاشة ذابا

وهوى بعلياء الجماعة رزؤه   فتجرعت كأس المصيبة صابا

وإذا بها فى حيرة من أمرها   تشكو المصاب وكم تحس مصابا

وإذا السكوت على الرءوس مخيم   والدمع ينطق إن أردت جوابا

وتصعدت زفراتهــا وكأنما   كانت لظى بين الحشا ولهابا

فى كل قلب للجماعة مأتم   يدع القلوب من اليقين خرابا

لولا التجلد من شعار رجالها   شقت عليه من الأسى الأثوابا

ياليلة ماكان أنحس نجمها   ليت الأهلة قد عدتك حسابا

عدت العوادى فاصطفت وتخيرت   خير الجماعة منطقــا وكتابا

والدهر أغمض ناظريه كأنه   ليث يكفكف ماضغين ونابا

وتعجل الحتم المجاب فلم يجد   إلا كريمــا مذ دعاه أجابا

ومضى به يزهى وقد دك العلا   دكا، وقوض بعدها الأحسابا

دار العلوم وما أجل مصابها   ثكلى تكابد لوعة وعــذابا

باتت تنوح كما تنوح حمائم   ذهب الحمــام بألفهن ذهابا

تبكى المعارف والمواهب والحجا   وتكاد تندب بعــده الآدابا

كادت تجن على (الوكيل) كأنما   قد كان فيهــا فرقدا وشهابا

قد غلقت يوم الفجيعة بابها   ومن الأسى قد فتحت أبوابا

لولا اليقين وحكمة من (عاصم)   ظلت على مر السنين يبابا

الله أكبر لو لمحت شبابها … عند الوداع يشيعون شبابا
لرأيت آيات الوفاء تجسمت … وشهدت من أمر البنين عجابا
قد روع الخطب الجسام قلوبهم … وبرى العظام ومزق الأعصابا
حاق الردى بالليث فانظركم ترى … أشباله حول العرين غضابا
لم يستطيعوا أن يذودوا عن أب … كان الحمام إذا رآه تغابى
ويح المنية إن رمت ما أخطأت … يا ليت سهمك يامنية خابا
ساروا أمام النعش جمعا حاشدا … سربا يتابع فى الخطا أسرابا
فى مشهد سد الفضاء ودونه … ركب الحجيج أحبة وصحابا
ضم الكرام فبكروا لوداعه … زمرا وجمع خلفه الأقطابا
ومشى جلال الموت فوق رءوسهم … والموت بالغ فى الجلال وحابى
تبكى القلوب وكم لها من أنة … تفرى الحشا وتفتت الأصلابا
والعين جارية يروعها الأسى … فاذا الدموع قد انهمرن عبابا
آمنت بالمولى القدير وأنه … خلق الوجود تفضلا وثوابا
نحيا كما شاء الإله وإن نمت … نمسى الحياة خديعة وسرابا
إن النفوس وديعة سترد فى … يوم وإن جهل الورى الأسبابا
كل له حين يواتيه الردى … فيه ، ولو تخذ السماء حجابا
تفنى الخلائق، والخلود لذكرها … بالصالحات ، فمن أراد أهابا
كتب الفقيد صحيفة محمودة … فانل الصحيفة تمتلىء إعجابا
يا واصلا حبلَ الجماعة بعدما … كانوا طوائف عدة وشعابا
ملأ الجوى قلبي فبت مسهدا … أدعو القريض فلا أصيب لبابا
فاعذر بيانى إن خطبك فادح … وإذا نطقت فلا أجيد خطابا
واستقبل المولى الكريم مطهرا … يسبغ عليك من الرضا جلبابا
وانعم بدار الخلد دارا لم تكن … إلا لمثلك مرجعاً ومآبا
والله يجزى الصابرين جزاءه … وجزى الجماعة حكمة وصوابا

فهرس